دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 33، العدد 2، 2006

مبحث التشبيه في "النكت في إعجاز القرآن" للرماني وأثره في البلاغيين قبل عبد القاهر

*عبد الكريم الحياري**

ملخص

انفرد الرماني بمذهب في التشبيه صدر فيه عن فكرة أن الأصل في التشبيه التطابق بين طرفيه اللذين تعقد الصلة بينهما أداة تشبيه ظاهرة لا مقدرة. وهذا البحث يتوفر على إيضاح معالم هذا المذهب، وتحليل جوانبه، وتفصيل مجملها، وتأويل غامضها، كما يتتبع آثار كل جانب منها في مؤلفات البلاغيين قبل عبد القاهر، ويحلّل كيفية تلقّيهم لها، ووجوه انتفاعهم بها.

لقد بدت فكرة التطابق تلك وما تفرع منها من مفاهيم وتقسيمات نافرةً عما تواضع عليه البلاغيون، ولكننا انتهينا في هذا البحث إلى أن هذه الفكرة ومشتقّاتها متّسقة مع الموروث البلاغي، مكملة له.وإذا استثنينا اشتراط الرماني التصريح بأداة التشبيه، فإن مذهبه فيه ليس على خلاف مع مذهب الجمهور وإن بدا مختلفاً عنه. أما البحث في تأثير الرماني فقد انتهى بنا إلى أن أفكاره التي لم تستوقف الباحثين المحدثين قد شغلت البلاغيين نحو قرن من الزمان، قبل أن يشغلهم عنها عبد القاهر. على أنهم تفاوتوا في مدى إفادتهم منها، وتباينت مذاهبهم فيها قبولاً ورفضاً، واضطربوا أحياناً في فهمها- وفيها قدر من الغموض- اضطراباً واضحاً، أو ترددوا بين الأخذ بها أو الخروج عليها. لقد تأثر بالرماني أعلام البلاغيين في المرحلة التي درسناها، وكان علي بن خلف هو أشدهم التصاقاً به وحماسة لأفكاره.

-أ-

كان لرسالة "النكت في إعجاز القرآن" لأبي الحسن الرماني (384 أو386 هـ) أثر واضح في صياغة الفكرة البلاغية وتطورها، ولكنه- فيما أعلم- ما زال في حاجة إلى مزيد من الدراسة والتحقيق. وقد تناولت ههنا جانباً من هذه المسألة، فدرست التشبيه في"النكت"، وتتبعت أصداءه إلى ما قبل عبد القاهر الجرجاني (471 أو 474هـ)، وذلك لأن الدرس البلاغي بعامة دخل بكتابي عبدالقاهر"أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" عهداً جديداً، فجاء بحثه في التشبيه، موضوع حديثنا، كأنه الطفرة التي يفصلها عما قبلها وادٍ سحيق، كما ان تأثيره فيه كاد يطمس كل تأثير سواه. على أن المؤرخ لتطور فن التشبيه يتبين بوضوح أن عبد القاهر والرماني علامات بارزة في طريق هذا التطور، ولستَ بواجدٍ في المدةّ الزمنية بينهما من تستطيع أن تجعله ثالثاً لهما في هذا الشأن، فكأن بحثنا هذا إنما هو في فن التشبيه كما تناوله الرماني إلى أن تسلمه منه عبد القاهر.

يتألف مبحث التشبيه في "النكت" (انظر ص74- 79(*)) من قسم" نظري" عرض فيه الرماني تصوره لهذا الفن، وآخر" تطبيقي" تحدث فيه عن بلاغة التشبيه واختار سبعة عشر تشبيهاً قرآنياً حللها ونبه على ما فيها من بلاغة فائقة. لقد تنوول التشبيه عند الرماني في أثناء مؤلفات كثيرة متعددة الاتجاهات والاهتمامات(1)، وحظي القسم التطبيقي بخاصة باهتمام واسع لدى الباحثين المحدثين، ولكنهم كادوا يقتصرون عليه فلم تستوقفهم مفاهيم الرماني النظرية في فن التشبيه، وربما يعود ذلك إلى أن هذه المفاهيم تبدو للناظر خارجة على عمود البيان العربي، نافرة عما تواضع عليه البلاغيون في هذا الباب. ولكن ذلك في حد ذاته أمارة على أصالة صاحبها وابتكاره، وكافٍ وحده لأن يجعلها جديرة بالبحث والدراسة، فضلاً عن أن التراث البلاغي في موضوع التشبيه أو غيره لا تُستكمل صورته ما لم يدرس من جوانبه المختلفة، ولما كان التشبيه عند الرماني ترك أثراً كبيراً في البلاغة بعده، فقد

---

* كلية الآداب، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث 2004/5/17، وتاريخ قبوله 2005/3/28.

(*) الصفحات المذكورة في متن البحث نفسه تشير عادة إلى مواضع من "النكت" (عندما تكون الإشارة مختصرة)، أو- إذا دلّ السياق بوضوح على ذلك- إلى مواضع من مؤلفات المتأثرين بالرماني، وذلك عندما يكون كتاب بعينه موضوعاً للحديث وتتكرر الإشارة إليه.

صار بذلك جانباً أساسيا من هذا التراث لا يمكن إغفاله. زد على ذلك ما ستراه من اضطراب البلاغيين في فهم أفكاره، مما يزيد من أهمية البحث فيها واستجلاء غوامضها .

وخطتنا ههنا هي أن نتناول بالدراسة كل جانب من جوانب التشبيه عند الرماني: مفهومه، وأداته، والفرق بينه وبين الاستعارة، وأقسامه، وبلاغته التي تجد مثلها الأعلى في التشبيه القرآني. على أننا أوجزنا القول في الجانب التطبيقي المتصل ببلاغة التشبيه وأمثلته القرآنية، لما ذكرناه قبل قليل من كونه موضوعاً متداولاً، فاكتفينا فيه بالحديث عما ظننا أننا لا نكرر به ما قيل في هذا الشأن. ولعلي أشير ههنا وأنا أتحدث عن مفاهيم الرماني إلى أن أفكاره تبدو أحياناً على غير ما هي عليه عند التحقيق، ولكن الخوض في هذه المسألة عند الحديث عن فكرة بعينها قد يكون سابقاً لأوانه، مخلاً بتماسك البحث وتسلسل أجزائه، ولذلك آثرت أن أتناول أفكاره- ولا سيما ما كان منها موضع خلاف بينه وبين غيره- كما تبدو في ظواهرها أولاً، على أن أعود إليها بعد أن تكون مفاهيمه قد اتّضحت جوانبها.

فإذا فرغنا من دراسة جانبٍ ما من جوانب التشبيه عند الرماني تتبعنا آثاره في كتابات البلاغيين في المدة التي جعلناها إطاراً زمنياً لهذا البحث. لقد كان للرماني تأثيرات متفاوتة في مبحث التشبيه في "الصناعتين" لأبي هلال العسكري (395هـ)، و"إعجاز القرآن" للقاضي الباقلاني (403هـ)، و"مواد البيان" لعلي بن خلف الكاتب (ألفه سنة 437هـ(2))، و"المحاسن في النظم والنثر" لأبي الحسن المرغيناني (أدرك النصف الثاني من القرن الخامس(3))، و"العمدة" لابن رشيق القيرواني (456هـ)، و"سر الفصاحة" لابن سنان الخفاجي (466هـ)، كما تجد أفكاره تتردد أصداؤها أيضاً في مواضع متفرقة من" شرح ديوان الحماسة" لأبي علي المرزوقي (421هـ). وقد اصطلحنا على تسمية هؤلاء "خلفاء الرماني"، وحيثما وردت هذه العبارة فإنها تشير إليهم دون سواهم. وعندما نتناول أياً منهم – وبعضهم له غير كتاب- فإنما نتحدث عما ورد عنده في الكتاب الذي ذكرناه له قبل قليل، إلا إذا نص الكلام صراحة على غير ذلك. والبحث في التأثر والتأثير يتطلب قدراً كبيراً من الحيطة والحذر، كما سترى في الحديث عن ابن رشيق فيما يأتي، وقد حرصت في عقد الصلات بين الرماني وخلفائه على أن يكون ذلك مستنداً إلى دلائل كافية أو قرائن تطمئن إليها النفس.

وفي حدود ما أعلم، فلم يشر أحد من قبل إلى صلة ابن خلاف بالرماني، وهو– كما سترى من بعد – أشد خلفائه تأثراً به وأهمهم جميعاً في هذا السياق. وتحدث عن أثر الرماني في المرزوقي جابر عصفور(4)- وهو الذي هداني إلى تتبع هذا الأثر- وأشار محقق كتاب المرغيناني إلى نقله عن الرماني(5) (وقد صرح المرغيناني بذلك على أي حال)، وأما الحديث عن تأثيره في أبي هلال والباقلاني وابن رشيق وابن سنان، فما زلت تجده في غير كتاب منذ أن نبه عليه محققا "النكت" اللذان جمعا طائفة صالحة من "تعليقات من جاءوا بعد الرماني على آرائه البلاغية واقتباساتهم من تلك الآراء" (ص150 – 180). على أن ما قيل في هذا الشأن من ملاحظات متفرقة فيما يتصل بموضوع بحثنا ههنا يشير غالباً إلى مواضع صرح فيها "خلفاء" الرماني بالنقل عنه ، أو كان تأثيره فيهم واضحاً جلياً (كما هي الحال عند أبي هلال مثلاً). وبحثنا هذا، فضلاً عن أنه يرمي إلى تتبع آثار الرماني في مبحث التشبيه في كتابات خلفائه، ما كان منها مصرحاً به أو غير مصرح، ظاهراً أو مستتراً، على نحو يستقصي (كما نؤمل) تلك الآثار ويبين مداها وحجمها – فإن النية معقودة فيه أيضاً على تحليل كيفية تلقيهم أفكاره قبولاً أو رفضاً أو تعديلاً، ومدى ما أصابوه من توفيق في فهمها وفي الإفادة منها والبناء عليها. وهكذا فإن حديثنا عن تأثير الرماني لا يقتصر على ما ردده خلفاؤه من بعده أو المسائل التي قالوا فيها بقوله، بل يتناول كل ما لديهم مما يتصل به بوجه من الوجوه، كتطوير أفكاره أو محاكاة منهجه أو حتى الرد عليه؛ فهذه كلها أصداء له، وألوان مختلفة من التأثر به. وقد أوجب اهتمامنا ببيان الطريقة التي تلقى بها هؤلاء أفكار الرماني- لا مجرد الإشارة إلى تأثيره فيهم- أن نصرف النظر عن تتابعهم الزمني أو تواريخ وفياتهم، لأن طبيعة البحث تقتضي أن نقدم أحدهم على غيره في موضع، ونؤخره عنه في موضع آخر.

ثمة صعوبات تعترض طريق هذا البحث، منها مثلاً غموض كلام الرماني (وهذه مسألة أشار إليها نقاده من قدماء ومحدثين(6))، وذلك ناشئ عن إبهام عبارته، وعن إفراطه في الإيجاز والاختصار. وقد اقتضى ذلك أن أتناول أفكاره بقدر من التفصيل الذي يحتمله هذا البحث، ولعلي أكون قد وفّقت في شرح مجملها، وتأويل غامضها. لقد اجتهدت في أن أقدم ههنا ما اعتقدت أنه يعبر عن حقيقة مراده، مستعيناً ما كان ذلك ممكناً بما ورد عند الذين تأثروا به، وإن كان اضطرابهم في فهم كلامه يجعل ما يتلقاه المرء منهم من عون أقل كثيراً مما كان يؤمله. على أن أهم تلك الصعوبات وأشدها استعصاء على الحل هي تلك المتصلة بما ينسبه إليه ابن رشيق من كلام لا نجده في "النكت"(7)، وهذا أمر لا يقتصر على باب التشبيه، بل يتكرر في مواضع

متعددة من"العمدة"[8]، كما ان الحديث فيه يحتاج إلى الخوض في تفصيلات كثيرة لا يطيقها هذا البحث، ويثير من الأسئلة ما يجعله حقيقاً بأن يفرد له بحث قائم برأسه. وحسبنا هنا أن نقول إننا- خلافاً لكثير من الباحثين[9]- لا نعتد بما انفرد ابن رشيق بنسبته إلى الرماني حتى يقوم الدليل على صحة هذه النسبة أولاً. ولو تحقق ذلك- وهذا ما نشك فيه- فإنه يعني أن ابن رشيق ينقل عن كتاب آخر للرماني غير"النكت"[10]، مما يدفع بهذه المسألة إلى حواشي بحثنا هذا، لا إلى متنه وصلبه.

- ب -

عرف الرماني التشبيه فقال: "هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل" (ص74)، وهذا التعريف، وبخاصة قوله " يسد مسد الآخر"، يكتنفه غير قليل من الغموض، ولا سيما انه لا يكاد يقول شيئاً في تفسيره نتبين منه مراده فيه. على أن علي بن خلف يفيدنا كثيراً في هذا الباب، وهو- كما ذكرنا من قبل- أكثر خلفاء الرماني متابعة له في آرائه وأفكاره، وهذا بلا ريب يجعل لكلامه أهمية كبيرة فيما نحن فيه، يقول ابن خلاف: "التشبيه هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر ويقوم مقامه في المشاهدة، حتى لو عدم أحدهما ووجد الآخر لم يكن بينهما تباين في الحقيقة، كجسمين من فضة، وجسمين من صفر، فهذا أصل الشبه[ولعل صوابها التشبيه] "(ص184). كأن ابن خلاف هنا أراد أن يوضح فكرة الرماني الغامضة في نيابة أحد طرفي التشبيه عن الآخر وقيامه مقامه (ولنسم ذلك فيما سيأتي، طلباً للاختصار، فكرة التناوب بين الطرفين). هذه الفكرة تعني أن بين الطرفين اتفاقاً تاماً، وأن كلاً منهما يشبه الآخر من جميع جوانبه فلا فرق بينهما، ومن هنا صح أن يسد أي منهما مسد الآخر، لأنك لو أزلت أحدهما ووضعت الآخر مكانه لما تغير في الأمر شيء. الأصل في التشبيه أنك تشبه هذا بذاك إذا كانا متماثلين تماثلاً تاماً"ولم يكن بينهما تباين في الحقيقة"، أما ماعدا ذلك من التشبيه فإنه يأتي خلافاً للأصل.

من المؤكد أن ابن خلاف ينطق هنا بلسان الرماني ويعبر عما كان في ذهنه فعلاً. التشبيه عند الرماني "على وجهين: تشبيه بلاغة وتشبيه حقيقة، فتشبيه البلاغة كتشبيه أعمال الكفار بالسراب، وتشبيه الحقيقة نحو: هذا الدينار كهذا الدينار فخذ أيهما شئت"(ص75)؛ التشبيه إذاً إما أن يقع بين طرفين متساويين لا فرق بينهما، كتشبيه الدينار بالدينار في مثال الرماني السابق، أو قول بائع الملابس:هذا القميص كهذا القميص فاختر أيهما أحببت، أو قول تاجر الأثاث: هذا الكرسي كهذا الكرسي، وهكذا. وإما أن يكون التشبيه بين شيئين مختلفين لوجود صفة مشتركة بينهما، كتشبيه أعمال الكفار بالسراب، وتشبيه فلان بالأسد، وما شاكل ذلك. النوع الأول هو تشبيه الشيء بنفسه، كما تشير إلى ذلك عبارة ابن رشيق[11]، والثاني تشبيه الشيء بغيره إذا وجدت بينهما جهة جامعة. ما يهمنا الآن هو "تشبيه الحقيقة"، فالمصطلح في نفسه يدلّ دلالة واضحة على أن هذا هو الأصل في التشبيه أو حقيقته، كما صرح بذلك ابن خلاف فيما اقتبسناه منه، أي أن التشبيه الحقيقي هو ما كان بين شيئين متساويين، أما التشبيه بين الشيئين المختلفين - وإن جمعت بينهما صفة أو صفات مشتركة- فهو كما يقول ابن رشيق (ج1، ص268) إنما يكون "بالمقاربة على المسامحة والاصطلاح، لا على الحقيقة"؛ فقولك: هذا الدينار كهذا الدينار يعني أن كلا من طرفي التشبيه يماثل الآخر فعلاً فلا فرق بينهما بوجه من الوجوه، وذلك بخلاف قولك: زيد كالأسد، فكيف شبهت زيداً بالأسد وزيد هذا لا يمشي على أربع، وليس له أنياب ومخالب، ولا يغطي الشعر جسمه، إلى غير ذلك مما يختص بالأسد في هيئته وصفاته؟ لقد أوقعت التشبيه ههنا بين طرفين بينهما – وإن اشتركا في صفة الشجاعة- بون بعيد وفروق عظيمة.

الأصل في التشبيه أن يكون بين شيئين متساويين يصلح أحدهما لأن" يسد مسد الآخر"، فأما تشبيه شيئين متفقين في جانب مختلفين في جوانب فهو خروج على حقيقة التشبيه وأصله. ومن هنا اشتقّ الرماني تعريفه للتشبيه من مفهوم تشبيه الحقيقة اعتداداً منه بالأصل لا بما خرج عليه؛ فقوله " أحد الشيئين يسد مسد الآخر" يصدق على تشبيه الدينار بالدينار والكرسي بالكرسي ونحو ذلك مما سماه تشبيه حقيقة، ولكن المرء لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن أن يستقيم ذلك في قولنا: فلان كالأسد أو كالبحر مما يكون عنده تشبيه بلاغة. يؤيد ذلك أنه لم يتطرق إلى مسألة التناوب بين طرفي التشبيه إلا في تعليقه على الأمثلة التي هي عنده قطعاً من باب تشبيه الحقيقة.

بنى الرماني مفهومه للتشبيه على فكرة التناوب والتطابق بين طرفيه، وهي الفكرة نفسها التي حرص قدامة بن جعفر على نقضها، فهو يؤكّد" أن الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات؛ إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتة اتحدا فصار الاثنان واحداً، فبقي أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معانٍ تعمهما ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد

منهما عن صاحبه بصفتها"[12]. التشبيه إذاً يقتضي اتفاقاً من وجه واختلافاً من وجه آخر؛ فبين الطرفين في قولنا "زيد كالأسد" جهة جامعة (الشجاعة)، ولكن أحدهما غير الآخر، فزيد يشبه الأسد ويختلف عنه في آنٍ معاً. ولا بد من اختلاف ما، فلو اتفق الطرفان اتفاقاً تاماً حتى لا يوجد بينهما أدنى فرق لم يجز التشبيه، لأن ذلك يجعل منهما شيئاً واحداً، فتكون عندئذ مشبهاً الشيء بنفسه.

تنبيه قدامة على ضرورة التغاير بين المتشابهين رد صريح مباشر على فكرة التطابق بينهما التي صدر عنها الرماني، ولولا أنه متقدم في زمانه (توفي سنة 337 هـ) على الرماني لقلنا إنه يرد عليه، ولكن قدامة ربما بدا كما لو كان يصحح مفهوماً سابقاً عليه، وعندئذ تكون فكرة التطابق تلك أقدم من الرماني وقدامة جميعاً، وهي فعلاً كذلك[13]. أما أن يقال إن الرماني (الذي يصعب أن نتصور أنه لا يعرف بلاغياً في منزلة قدامة) يرد عليه، فإن عبارته لا تشعر بذلك البتة. وإذا كان من أثر لقدامة في التشبيه عند الرماني، فهو في أنه يمكن الزعم أن مفهوم الرماني قد جاء تطويراً لفكرة وردت في " نقد الشعر" نفسه. التشبيه- ونحن نتحدث الآن بمنطق قدامة- يتضمن اتفاقاً بين الطرفين واختلافاً في الوقت نفسه، ولكن الاتفاق بينهما هو أساس التشبيه (كما يدلّ المصطلح نفسه) وعلة وجوده، فنحن في التشبيه إنما نبحث عن وجوه الاشتراك لا عن مواضع الاختلاف، ولذلك حرص قدامة على أن يؤكّد مباشرة بعد كلامه الذي اقتبسناه منه قبل قليل أن" أحسن التشبيه هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد"[14]. وعبارته الأخيرة (حتى يدنى... الخ) تعود بنا إلى مفهوم التطابق بين الطرفين كما لاحظ ذلك فعلاً ابن رشيق[15]، وكأن الرماني اتخذ من كلام قدامة ههنا، إذا كان قد تأثر به حقاً، أساساً بنى عليه مفهومه للتشبيه. على أننا إذا استثنينا هذا الموضع الذي يقترب فيه قدامة من الرماني اقتراباً شديداً، فإن كلاً منهما يذهب مذهباً يبدو فيه كأنه ينقض ما أبرمه صاحبه. وليس هذا وحده السبب في أن الحديث عن أحدهما يظلّ ناقصاً ما لم نتناول الآخر، فإن قدامة أيضاً أهم منافس للرماني في مدى التأثير في مبحث التشبيه قبل عبد القاهر، وخلفاء الرماني الذين لم يفلح في إقناعهم بمفهومه للتشبيه انصرفوا عنه إلى قدامة وقالوا بقوله، فكان أن تحولوا عن إمام إلى إمام غيره.

لم يقتنع أحد قطّ- فيما نعلم - بفكرة الرماني في التناوب كما اقتنع ابن خاف، بل لقد كان أكثر منه إلحاحاً عليها وعلى أن التطابق بين الطرفين كما رأينا هو الأصل في التشبيه، وإنك لتجده يخص ما كان كذلك باسم "المشابهة"، بينما يسمي التشبيه بين طرفين مختلفين "المشاكلة"[16]. على أن مفهوم التناوب عنده يتّسع من ناحية ويضيق من ناحية أخرى، وبين هذا الضيق وذلك الاتساع فقدهذا المفهوم تماسكه الذي كان عليه بين يدي الرماني. إذا عارضتَ تعريفه للتشبيه بما جاء في"النكت"، وجدت أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر" في حس أوعقل" عند الرماني، وفي"المشاهدة" (فقط) عنده، وبذلك جعل التناوب مقصوراً على الحس (المشاهدة). ثم تراه بعد ذلك يوسع مفهوم التناوب ليستوعب ما سماه "المشاكلة"، ففيها "يسد أحد المتماثلين مسد الآخر من جهة [أي جزئياً لا كلياً]، كالعلم والنور فإنهما يتشاكلان في معنى الإبانة" (ص228).

ولعل ابن خاف حصر فكرة التناوب في المحسوسات لأن الفكرة ُبنيت أصلاً على التطابق التام بين الطرفين، وهو ما يصعب تصوره في المعنويات؛ تساوي الطرفين في مثل قولنا: "هذا الدينار كهذا الدينار" ظاهر بين، وهذا يختلف عن تشبيه قوة زيد بقوة عمرو الذي مثّل به الرماني على التشبيه غير الحسي وقال(ص74): "القوة لا ُتشاهد ولكنها تعلم سادة مسد أخرى فتشبه [بها[17]]"، فمن الصعب أن نتصور أن بين القوتين تطابقاً تاما- حيث لا زيادة ولا نقصان - كذلك الذي بين الدينار والدينار. ومع ذلك فليس بممتنع في العقل أن تكون قوة امرئ مساوية لقوة آخر، ولكن أنى لنا أن نتخيل تساوي العلم والنور في صفة الإبانة وأن أحدهما يسد مسد الآخر على ما ذكره ابن خاف في موضوع "المشاكلة"؟ ولو غضضنا الطرف عن ذلك فلسنا بقادرين على أن نجد سبيلاً للتوفيق بين هذه المشاكلة (المعنوية) وما جاء في تعريفه من أن التناوب إنما يكون في"المشاهدة".

كلام الرماني لا يمكن نسبته إلى التناقض، وليس كذلك ابن خاف الذي اضطربت خطاه عندما حملته قدماه إلى أرض لم يطأها الرماني، ولكنه من بين خلفاء الرماني هو وحده الذي تمسك حقاً بفكرة التناوب وتحمس لها. صحيح أن أصداءها تتردد عند آخرين، ولكن لا يمكن القول إن أياً منهم قد أخلص لها والتزم في حديثه عن التشبيه الصدور عنها. لن نقف طويلاً عند القاضي الباقلاني الذي اكتفى في "إعجاز القرآن" (انظر ص 263-264) بنقل تعريف الرماني كما هو لم يغير فيه شيئاً، وسياق حديثه يدلّ على أن غرضه حكاية كلام الرماني دون أن يكون معنياً بموافقته أو مخالفته في مفهوم التشبيه أو غيره من الفنون البلاغية التي نقلها عنه، فإن همه كان متجهاً إلى بيان الصلة ما بين هذه الفنون ومسألة الإعجاز[18].

فإذا تركنا الباقلاني إلى غيره من خلفاء الرماني، فإننا

نجد أبا هلال العسكري يعرف التشبيه في "الصناعتين" على أنه "الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه، ناب منابه أو لم ينب" (ص239). وأنت ترى أن أول هذا التعريف (أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر) لا يوافق تماماً آخره (أو لم ينب)، وكأن أبا هلال بدأ موافقاً للرماني ثم انتهى بالخروج عليه. وكذلك تجده يتحدث كالرماني عن التشبيه بين الشيئين المتماثلين، مع أنه يقول قبل ذلك: "ولو أشبه الشيء الشيء من جميع جهاته لكان هو هو" (ص239 أيضاً)، مردداً مقالة قدامة في إنكار وقوع التشبيه بين شيئين متماثلين. وقد يقال في توجيه كلام أبي هلال إنه يرى مثل الرماني وابن خاف أن الأصل في التشبيه التناوب بين طرفين متطابقين، وأن ما كان على غير هذه الصفة فهو خروج على ذلك الأصل[19]. ولكننا مع ذلك أميل إلى القول إنه مضطرب متردد بين متابعة الرماني ومخالفته، ولا سيما اننا سنجد هذا الاضطراب يتكرر عنده في مواضع أخرى. قدامة والرماني من أشد مصادره تأثيراً فيه، وتردده ناشئ عن حيرته بين أن يقتدي بهذا طوراً ويهتدي بذاك طوراً آخر، فمن الواضح أنه يتنقّل بينهما مما أفضى به إلى أن يكون كلامه على هذا النحو من عدم الاتساق. لقد جمع بين مفهومين كل منهما يسير في اتجاه مخالف للآخر.

مقالة قدامة يتبنّاها ويتخذها مذهباً له كل من ابن سنان الخفاجي وابن رشيق القيرواني[20]، وهما من المتأثرين تأثراً واضحاً بالرماني في باب التشبيه وغيره، ولكن كلاً منهما حرص على أن ينأى بنفسه عن الرماني في موضوع التطابق بين المتشابهين، وبلغ بهما ذلك الحرص أن كانت حماستهما لفكرة التغاير بينهما أشد من حماسة صاحبها قدامة نفسه. لقد رأينا قدامة يستحسن أن يقوى الاشتراك بين طرفي التشبيه "حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد"، وقد رأى ابن سنان وابن رشيق أن ذلك يضعف مفهوم التغاير السابق، فآثر كل منهما أن ينأى بنفسه عن قدامة أيضاً فيما يتصل بمسألة الاتحاد هذه. نقل ابن سنان حقاً (دون أن يصرح بذلك) فكرة قدامة في استحسان أن تكون الصفات المشتركة بين المتشابهين كثيرة، ولكن انظر كيف وردت هذه الفكرة عنده، يقول: "الأحسن في التشبيه أن يكون أحد الشيئين يشبه الآخر في أكثر صفاته ومعانيه، وبالضد حتى يكون رديء التشبيه ما قلّ شبهه بالمشبه به" (ص246)؛ إنه يتابع قدامة ولكن دون أن يمضي معه إلى نهاية الطريق، فقد افترقا عند قول قدامة "حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد". هذه العبارة التي ذيل بها قدامة فكرته التي نتحدث عنها اطرحها ابن سنان اطراحاً لكي يظلّ مفهومه للتشبيه مبايناً لمقالة الرماني في التطابق والتناوب. أما ابن رشيق فقد ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه ابن سنان الذي ما زال على كل حال يفضل اشتراك المتشابهين في أكثر المعاني والصفات. ابن رشيق لا يكتفي بإهمال فكرة الاتحاد عند قدامة، بل ينتقده صراحة ويرى في فكرته هذه نكوصاً إلى مفهوم التطابق نفسه، فهي " كتشبيه نفس الشيء المشبه الذي ذكره الرماني في تشبيه الحقيقة" (ج1، ص289)، ثم يتجاوز ذلك إلى رفض فكرة قدامة (وابن سنان بعده) في استحسان التشبيه الذي تكثر فيه وجوه الاشتراك بين الطرفين، فإن " فضل الشاعر فيه غير كبير حينئذ... وإنما حسن التشبيه أن يقرب بين البعيدين حتى تصير بينهما مناسبة واشتراك" (ج1، ص289 أيضا).

مصطلح التشبيه في حد ذاته يشير، كما قدمنا، إلى وجوه الشبه لا إلى مواضع الاختلاف؛ ابن سنان يصدر في رأيه عن هذه النظرة، بينما يلح عليها قدامة إلحاحاً شديداً، أما الرماني فقد استحوذت عليه كلياً، ولكن ابن رشيق خالف القوم في أنه وجه عنايته إلى مواضع الاختلاف بين طرفي التشبيه. ابن سنان يفضل أن تكون المسافة بين المتشابهين قريبة، وقدامة يريدها في غاية القرب، والرماني يلغي هذه المسافة تماماً؛ التشبيه عندهم صلة رحم بين طرفين يستحسن عند ابن سنان أن يكونا من أبناء العمومة، وعند قدامة أن يكونا أخوين شقيقين، وعند الرماني أن يكونا من التوائم المتطابقة. أما في مذهب ابن رشيق فالتشبيه كأنه زواج بين طرفين، وكلما كانت المسافة بينهما أبعد - إذا افترضنا أنه ممن لا يشجعون على زواج الأقارب- كان المولود أفضل وأحسن. هكذا تبدو الأمور للناظر، وهذا ما تنطق به مؤلفات القوم، ولكن لا يغرنك ما تراه من تضارب بين مفهوم الرماني في التطابق بين طرفي التشبيه ومقالة قدامة ومن تابعه في التغاير بينهما، فإنما هو خلاف ظاهري لا حقيقي كما سيرد عليك في حينه.

- ج -

كلمة "العقد" في تعريف الرماني "العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر" لا تخلو أيضاً من غموض وإبهام. وليس لدينا ما نستعين به على معرفة المقصود بها إلا قوله بعد ذلك في التعليق على أول مثال عنده: "فالكاف عقدت المشبه به بالمشبه" (ص74)، ويفهم من ذلك أن كلمة "العقد" في تعريفه تعني الربط أوعقد الصلة بين الطرفين بأداة التشبيه، وإذا كان ما ذهبنا إليه صحيحاً فإن معناه أن تعريفه يقتضي التلفظ بأداة التشبيه. وبالفعل فإن ثمة دلائل تقطع بأن التشبيه عنده مشروط بذكر أداته؛ لقد نص غير مرة على أن

التشبيه يكون "بأداته الدالة عليه في اللغة" (ص79، وانظر ص75، س1-2)، وإذا تتبعت أمثلته- وهي كثيرة – وجدت أداة التشبيه مذكورة فيها جميعاً(21)، وذلك كله يدلّ على أنه لا يدخل في التشبيه إلا ما كانت الأداة فيه ظاهرة غير مستترة. وربما دفعه إلى ذلك أن الأسلوب القرآني، موضوع بحثه، يقلّ فيه الاستغناء عن أداة التشبيه، " وإنما عامة التشبيهات هناك مقرونة بالأدوات"، كما يقول ابن ناقيا البغدادي(22). وهكذا فقد ضيق الرماني مفهوم هذا الفن فنفى منه- مخالفاً بذلك جمهور البلاغيين من قدماء ومحدثين- "التشبيه المضمر الأداة" في عرف بعضهم أو "التشبيه المؤكد" في اصطلاح المتأخرين، وقصره على "التشبيه المظهر الأداة" أو ما سماه المتأخرون "التشبيه المرسل"(23).

وكما انقسم خلفاء الرماني بشأن مقالته في التناوب بين مؤيد ومعارض، فكذلك تباينت مذاهبهم فيما يتصل باشتراطه التصريح بالأداة. ابن خاف يتابعه بل يزداد قرباً منه في هذه المسألة أكثر مما كان عليه في تلك؛ ففي حين انه قد أحدث تعديلاً في فكرة التناوب كما رأينا، فإنه التزم مذهب الرماني التزاماً حرفياً في موضوع الأداة، فنص في غير موضع على "ان التشبيه... لا يستعمل إلا بأداته الموضوعة له في أصل اللغة" (ص171، وانظر أيضاً ص172). صحيحٌ أنه قسم التشبيه قسمين أحدهما فقط يكون بأداة التشبيه، ولكن يحسن بنا أن نقتبس كلامه في ذلك لنتبين أنه لم يخرج فيه على ما قرره الرماني؛ يقول: " والتشبيه تشبيهان: أحدهما يعبر عنه اللفظ، والآخر يدلّ عليه العقل من غير عبارة موضوعة له، وهو الجمع بين شيئين في معنى يوجب الاستدلالُ التماثلَ فيه، فالذي يعبر عنه اللفظ ما كان بآلة التشبيه، كقولك: هذا كهذا، ومثل هذا، وشبه هذا، فإذا استعملت هذه الآلة فقد وقع التشبيه... والذي يدلّ عليه العقل نحو: الطعم جسم والريح جسم، فهذا يلزم الاستدلال التماثل فيه، وقائله مشبه وإن خفي عليه إذا [ولعل الصواب إذ] كان إنما ُيتعرف بالاستدلال" (ص185). القسم الأول هو التشبيه المعروف، أما الثاني فهو تشبيه يتوصل إليه بالاستدلال المنطقي دون أن تفصح عبارة قائله عن قصده للتشبيه أوحتى دون أن يتنبه إلى أن في كلامه تشبيهاً؛ فمن قال: "الطعم جسم والريح جسم" شبه الطعم بالريح في كون كل منهما جسماً، "وإن خفي عليه" ذلك. ولكن الرماني وسائر البلاغيين، ومنهم ابن خاف نفسه في غير هذا الموضع، إذا تحدثوا عن التشبيه فإنما يريدون به ما يقابل القسم الأول من هذين القسمين؛ وإذاً فلا فرق بين الرماني وابن خاف في مسألة الأداة، فابن خاف أيضاً يشترط وجودها في (القسم الأول الذي يصدق عليه وحده مفهوم) التشبيه بمعناه المتعارف عليه، والرماني إنما يتحدّث عن هذا التشبيه بعينه، فالموضع الذي يوجب كل منهما ذكرها فيه واحد.

ابن خاف وحده من بين خلفاء الرماني تابعه في موضوع الأداة. الباقلاني لم يخض في هذه المسألة إذ لم يكن من غرضه البحث في مفهوم التشبيه كما ذكرنا، أما أبوهلال العسكري فإنه يتردد في الأخذ برأي الرماني ههنا كما تردد في موضوع التناوب؛ لقد جعل أبو هلال التصريح بأداة التشبيه جزءاً من تعريفه الذي اقتبسناه من قبل (الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه)، لكي يقول بعد ذلك مباشرة: " وقد جاء [التشبيه] في الشعر وسائر الكلام بغيرأداة التشبيه" (ص239)، ثم يعود إلى تأكيد ذلك في موضع آخر والاحتجاج له بما يشبه أن يكون رداً على مذهب الرماني وتدليلاً على فساده، يقول: "وقد يكون التشبيه بغير أداة التشبيه، وهو كقول امرئ القيس:

له أيطلا ظبي وساقا نعامة
وإرخاء سِرحان وتقريب تَتْفُل

هذا إذا لم يحمل على التشبيه فسد الكلام؛ لأن الفرس لا يكون له أيطلا ظبي ولا ساقا نعامة ولا غيره مما ذكره، وإنما المعنى له أيطلان كأيطلي ظبي وساقان كساقي نعامة" (ص249). أبو هلال هنا كما في موضوع التناوب يبدأ موافقاً للرماني وينتهي بمخالفته، ولعل تردده هنا أظهر وأوضح. وقد نقول في هذا الشأن شيئاً شبيهاً بما قلناه هناك، فنذهب إلى أن أبا هلال يرى أن الأصل في التشبيه ظهور أداته (ومعظم أمثلته كذلك)، وإن كان هذا لا يمنع من أن يأتي بغير أداة. ولكن مهما قيل في توجيه كلامه، فإن عدم الاتساق فيه باق، سواء في مسألة الأداة أم في موضوع التناوب، وكأنه في الحالين يجد نفسه قد انساق وراء الرماني وتسرع في موافقته، فيعود ويستدرك عليه.

ابن رشيق أيضاً يؤكد غير مرة في باب التشبيه أنه كما يرد بالكاف وغيرها من أدواته، فإنه يأتي "بغيركاف ولا شيء من أخواتها"(24)، وربما قصد بذلك الرد على الرماني أو أن يظهر مخالفته له، ثم تجده يقول في باب التمثيل (وهو عنده من ضروب الاستعارة): "والتمثيل والاستعارة من التشبيه، إلا أنهما بغير أداته" (ج1، ص280)، وذلك يعني أن الأداة ملازمة للتشبيه أبداً، وإلا خرج عن كونه تشبيهاً وأصبح استعارة، وهذا هو مذهب الرماني بعينه. لقد سبق أن ذكرنا أن أبا هلال ربما كان يرى أن الأصل في التشبيه – وإن كان الخروج على هذا الأصل جائزاً –ان تذكر أداته، أما ابن رشيق فإنه يقولها صراحة: "أصل التشبيه مع دخول الكاف وأمثالها أو كأن وما شاكلها" (ج1، ص290). ولكن لو صح

لنا أن نحتج بذلك في دفع التعارض في كلام أبي هلال، فإن ذلك لا يستقيم إذا أريد الاعتذار لابن رشيق؛ ذلك أنه – خلافاً لأبي هلال– جعل الأداة نفسها علامة على الفرق بين التشبيه والاستعارة، ومعنى هذا أن ما جاء بغير أداة فهو استعارة وليس تشبيهاً. ابن رشيق يتابع الرماني عندما فرق بين التشبيه والاستعارة ويخالفه عندما تحدث عن التشبيه وأداته، ويبدو أن وقوعه في إسار الرماني في الموضع الأول، وبعد المسافة ما بينه وبين الموضع الآخر– قد أذهلاه عن أن يتنبه إلى ما في كلامه هنا وهناك من تدافع وعدم اتساق.

لا نجد من خلفاء الرماني من كان حاسماً جازماً غير متردد في معارضته لرأيه في موضوع الأداة إلا ابن سنان، وقد تفرد من بينهم أيضاً بأنه رد على الرماني صراحة ولم يكتفِ بمجرد الانحراف عن طريقه. يخطئ ابن سنان صاحب "النكت" في اشتراطه ذكر أداة التشبيه، ويصر على أن من التشبيه ما لا تظهر فيه الأداة (انظر ص119)، ثم يعود إلى تأكيد ذلك في موضع آخر فيقول: "وقد يكون التشبيه بحروفه كالكاف وكأن وما يجري مجراهما، وقد يكون بغير حرف على ظاهر المعنى، ويستحسن ذلك لما فيه من الإيجاز" (ص246). ولعل إلحاحه على مخالفة الرماني هو الذي جعله يصنف أمثلة النوعين (ما حذفت أداته وما لم تحذف) في مجموعتين متقابلتين (انظر ص246-253).

- د -

على أن ثمة سؤالاً ههنا: أين ينتهي الأمر في مذهب الرماني – وقد أخرج من التشبيه ما حذفت أداته- بما يسميه غيره تشبيهاً مؤكداً أو مضمر الأداة؟ الاستعارة ألصق الفنون البلاغية بالتشبيه حتى عدها بعضهم تشبيهاً مقتضباً أو غير تام(25)، وهي عند الرماني أيضاً شديدة القرب من التشبيه، فهي " جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما يكسب بيان أحدهما بالآخر كالتشبيه" (ص 79)، فصارت الاستعارة بذلك أولى الفنون البلاغية عنده بقبول ما ضاق عنه التشبيه، وليس ثمة من مكان آخر سوى الاستعارة يستوعب ما سموه تشبيهاً مؤكداً، وهذا لا بد من أن يفضي بالرماني إلى أن يجعل الأداة- خلافاً لما عليه جمهور البلاغيين(26) - فيصلاً ما بين التشبيه والاستعارة، وقد نص فعلاً في التفريق بينهما على أن الاستعارة تكون " بنقل الكلمة [عن معناها الأصلي]، والتشبيه بأداته الدالة عليه في اللغة" (ص79 أيضاً). ومع أنه ليس صريحاً في عده "التشبيه المضمر الأداة" استعارة، إلا أن اختصاصه التشبيه بما ذكرت أداته في سياق التفريق بينه وبين الاستعارة - ولا نعرف أحداً قبله تناول الفرق بين الفنين(27) - دليل قاطع على أن الأداة أساس في التمييز بينهما، فما لم تُذكر أداته فهو استعارة(28). نظير ذلك أن اختصاصه "نقل الكلمة" بالاستعارة يعني – وقد صرح بذلك كما سنرى - أن هذا النقل غير موجود في التشبيه.

"النقل" فرق آخر بين الفنين، وذلك " أن ما كان من التشبيه(29) بأداة التشبيه في الكلام فهو على أصله لم يغير عنه في الاستعمال، وليس كذلك الاستعارة؛ لأن مخرج الاستعارة مخرج ما العبارة ليست له في أصل اللغة" (ص79 أيضاً). لفظة "أسد" في قولنا "زيد كالأسد" مستعملة في معناها الأصلي لتدلّ على السبع، فإذا قلت "رأيت أسداً يتصدى ببندقيته لجنود العدو"، كنت قد عدلت بتلك الكلمة عن ذلك المعنى الأصلي واستعملتها للدلالة على الرجل الشجاع. وكأن الرماني ههنا، وبخاصة في قوله " ما كان بأداة التشبيه في الكلام فهو على أصله" – كأنه يرى أن ثمة علاقة ما بين مسألة الأداة وبكون الكلمة مستعملة في معناها الأصلي أو منقولة عنه، فقد يفهم من كلامه أن أداة التشبيه تحول دون نقل الكلمة عن دلالتها الأصلية، أو هي أمارة على أن الكلمة ما زالت مستخدمة فيما وضعت له أصلاً.

الاستعارة إذا ينحرف اللفظ فيها عن دلالته الأصلية وليس كذلك التشبيه، وهذه مسألة لم تكن موضع خلاف قط بين الرماني وخلفائه. ابن خلف كما سترى بعد قليل يكرر عبارات "النكت" في هذا الشأن، وابن سنان الذي خالف الرماني في كل ما سبق يعلن موافقته له ههنا ويقول بقوله؛ إذ يتبنى في التفريق بين التشبيه والاستعارة " ما ذكره أبو الحسن [الرماني]، وهو أن التشبيه على أصله لم يغير عنه في الاستعمال، وليس كذلك الاستعارة؛ لأن مخرج الاستعارة مخرج ما ليست العبارة له في أصل اللغة" (ص119). وأبو هلال العسكري وابن رشيق يتابعان الرماني في تعريفه للاستعارة وأن اللفظ فيها ينقل عن أصله في اللغة(30)، واختصاصهما الاستعارة بذلك يفهم منه أن التشبيه لا تفارق فيه الكلمة دلالتها الأصلية، وعامة كلامهما في التشبيه والاستعارة يؤيد هذا الفهم.

المسألة الخلافية ههنا تتصل بكون الأداة عند الرماني مما يفرق بين التشبيه والاستعارة، وكل رأي فيها فإنما هو امتداد أو نتيجة منطقية لمذهب صاحبه في كون التشبيه مشروطاً بذكر أداته أم غير مشروط بذلك؛ فمن أوجب التصريح بها فقد ألزم نفسه أن يعتد بها في التفريق بين التشبيه والاستعارة، ومن يجيز حذفها لا يمكنه الاعتداد بها في هذه المسألة. وهكذا تجد ابن خلف يؤكّد "أن التشبيه على أصله في الكلام

لا يستعمل إلا بأداته الموضوعة له في أصل اللغة فلم يتغير عن حقيقته، وليست كذلك الاستعارة لأنها تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة"(31)، فهو مثل الرماني يرى أن الأداة تفرق بين الفنين، ويرى مثله أيضاً أن ثمة صلة ما بين ظهور الأداة وكون اللفظ مستعملاً في معناه الأصلي. وذلك على العكس من ابن سنان الذي يعود هنا إلى الخروج على خطة الرماني ويرد عليه، بعد أن كان وافقه فيما اقتبسناه منه قبل قليل، يقول: "على أن الرماني قال في كلامه: إن التشبيه في الكلام بأداة التشبيه ... وليس يقع الفرق عندي بين التشبيه والاستعارة بأداة التشبيه فقط(32)؛ لأن التشبيه قد يرد بغير الألفاظ الموضوعة له ويكون حسناً مختاراً، ولا يعده أحد في جملة الاستعارة لخلوه من آلة التشبيه" (ص 119). أما أبو هلال وابن رشيق فقد رأينا ما كان من ترددهما في مسألة الأداة، على أن جملة أقوالهما وأمثلتهما تؤكّد أن حذف الأداة لا يخرج التشبيه عن كونه تشبيهاً، فلم تعد تصلح إذاً للتفريق بينه وبين الاستعارة. وحقاً أن ابن رشيق ذكر فيما نقلناه عنه سابقاً أن الأداة تفرق بينهما، ولكن هذا يعبر- كما هي الحال عند أبي هلال- عن الصعوبة التي يجدها في التحرر من تأثير الرماني أكثر مما يعبر عن حقيقة مذهبه، فهو لا يكتفي (ومثله في ذلك أبو هلال وابن سنان أيضاً) بأن يعد في التشبيه ما كان منه محذوف الأداة، بل يجعل منه أيضاً ما سمي فيما بعد "الاستعارة التصريحية" التي لا يذكر فيها من أركان التشبيه إلا المشبه به(33). ولعل ابن قيم الجوزية من المتأخرين كان أكثر توفيقاً في التعبير عما يريده أبو هلال وابن رشيق عندما ذكر "أن التشبيه لا يكون إلا بأداة التشبيه غالباً، والاستعارة لا تحتاج إلى أداة"(34).

- هـ -

التشبيه عند الرماني لا يخلو "من أن يكون في القول أو في النفس؛ فأما القول فنحو قولك: زيد شديد كالأسد، فالكاف عقدت المشبه به بالمشبه، وأما العقد في النفس فالاعتقاد لمعنى هذا القول" (ص 74). ومعنى ذلك أن للتشبيه جانبين: أحدهما يتصل باللفظ الذي ينطق به المتكلم، أي العبارة نفسها التي أفاد بها المتكلم إيقاع التشبيه بين طرفين، وثانيهما له اتصال بما في نفس هذا المتكلم، وهو أنه يعتقد فعلاً بوجود الشبه بين هذين الطرفين. الجانب الأول وحده هو ما تعاقب البلاغيون على دراسته والتأليف فيه، فهم في تناولهم التشبيه معنيون بما يقوله المتكلم لا بما يعتقده، أما الرماني فقد دفعه شغفه الواضح بالتشقيق والتفريع إلى أن يخوض في تقسيمات لم يألفها الدرس البلاغي.

يعود الرماني فيقسم التشبيه قسمة ثانية (انظر ص74) إلى حسي ونفسي (أي معنوي)، ولا يستوقفنا هذا التقسيم فهو شائع متداول بين البلاغيين. ثم نجد التشبيه عنده في قسمة ثالثة "على وجهين: تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما، وتشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما مشترك بينهما؛ فالأول كتشبيه الجوهر بالجوهر وتشبيه السواد بالسواد، والثاني كتشبيه الشدة بالموت والبيان بالسحر الحلال" (ص74 – 75). وأخيراً يقسم التشبيه إلى حقيقة وبلاغة(35)، وهي القسمة التي اقتضت طبيعة البحث أن نتناولها بشيء من التفصيل فيما سبق. ما يهمنا ههنا هو أن نذكر أن المرء قد لا يجد فرقاً بين التقسيمين الأخيرين (الثالث والرابع)؛ فإنك إذا نظرت في عبارات الرماني وأمثلته واجدٌ أن تشبيه الحقيقة (هذا الدينار كهذا الدينار) هو عينه" تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما"، وأن تشبيه البلاغة (أعمال الكفار كالسراب) هو نفسه" تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما". والرماني في الموضعين يصدر عن فكرة التناوب نفسها؛ إذ يقابل في التقسيمين كليهما القسم الذي تتحقق فيه هذه الفكرة بالقسم الآخر الذي لا تتحقق فيه. وقد لا نتبين سبباً لهذا التكرار إلا أن نرده إلى ولع الرماني بالتفريع والتشقيق(36). على أننا قد نقول إنه يفرق تارة بين كون الطرفين من جنس واحد كما في تشبيه الشعر بالليل أو تشبيه الليل بالفحم أو بخافية الغراب (انظر قوله" تشبيه السواد بالسواد") وكونهما شيئين متباعدين كالبيان والسحر الحلال، ويميز تارة أخرى بين الطرفين إذا كانا متماثلين متطابقين كالدينار والدينار أو مختلفين كالسراب وأعمال الكفار. فإن لم تسلّم بوجود هذا الفرق بين التقسيمين، فإنهما يختلفان في أن أحدهما يميز فيه الرماني بين نوعين من التشبيه من حيث طبيعة العلاقة بين طرفي التشبيه في كلّ نوع منهما (كونهما متماثلين أو متباعدين)، أما الثاني فيشير فيه إلى الموضع الذي يستعمل فيه كل من هذين النوعين (كلام البلغاء أو كلام الباعة والصيارفة). وعلى ذلك فإن بين التقسيمين فرقاً في التصنيف الشكلي على الأول، ولعل ذلك يزداد وضوحاً عند حديثنا بعد قليل عن التكرار في تقسيمات ابن خلف.

تفريعات الرماني وتقسيماته هذه لم يكن لها صدى قط عند بعض خلفائه كالباقلاني الذي لم يكن لديه متسع للخوض في هذه التقسيمات، وغرضه إنما هو أن يعرض بإيجاز الأبواب البلاغية عند الرماني. كذلك أعرض عنها ابن سنان الذي يمكن أن يكون قد رأى أنها تقسيمات منطقية لا فائدة منها في الدرس البلاغي. وفضلاً عن ذلك فإن التقسيمين الأخيرين يعودان كما رأينا إلى فكرة التناوب، ولما كان ابن سنان- وقد

نجح في كل موضع في أن يبقي مفهومه للتشبيه متماسكاً بريئاً من التردد أو الاضطراب أو التناقض – قد رفض تلك الفكرة ابتداءً، فإن ذلك لا بد مفضٍ إلى اطراح ما بني عليها.

أما الذين تأثروا بتقسيمات الرماني، فإن ابن خلف ههنا أيضاً هو أقربهم إليه، وأكثرهم اقتداء به. ومع أن ميله إلى تجاوز تقسيمات الرماني لا تخطئه العين؛ إذ يحور فيها كما سنرى أو يضيف إليها أو يسقط بعضها (كالتفريق بين التشبيه الحسي والتشبيه النفسي) – فإنه في حقيقة الأمر لم يخرج عن خطة الرماني، بل ظلّ يستضيء بناره حتى في التقسيمات التي لم يستمدها منه، فقد حذا فيها حذوه، وقدها على مثاله، فلا تستغرب إذاً أن بعضها قد نسب فيما بعد إلى الرماني نفسه(37). وهكذا فإن ابن خلف يريد أن يجتهد، ولكن على طريقة الرماني؛ دونك مثلاً ما ذكرناه سابقاً من أن التشبيه عند ابن خلف " تشبيهان: أحدهما يعبر عنه اللفظ، والآخر يدلّ عليه العقل من غير عبارة موضوعة له"، فهذا التقسيم لم يرد في "النكت"، ولكن نفس الرماني واضح فيه، بل هو ينظر إلى تقسيمه التشبيه إلى تشبيه في القول وآخر في النفس، ومع أن القسم الثاني ههنا يختلف مفهومه في "مواد البيان" عما يقابله في "النكت"، إلا أن القسم الأول في أحدهما هو عينه في الآخر (تشبيه في اللفظ = تشبيه في القول). وينقل ابن خلف في قسمة أخرى (ص187- 188) عن " بعض أهل البلاغة" أن التشبيه "أربعة أضرب: تشبيه عين بعين، وتشبيه حدث بحدث، وتشبيه عين بحدث، وتشبيه حدث بعين". وهذا التقسيم الذي لم ينسبه إلى نفسه لا يبتعد كثيراً عن الخط العام للرماني وتشقيقاته المنطقية.

أما التقسيمات الأخرى عند ابن خلف فإنها مستوحاة من تقسيمات الرماني أو هي إعادة صياغة لها. يقسم ابن خلف التشبيه إلى تشبيه تحقيق وتشبيه تقدير، الأول منهما "هو التشبيه بالنفس كقولك: هذا الجوهر كهذا الجوهر"، والثاني "هو التشبيه من وجه دون وجه كقولك: الشدة كالموت صعوبة، وهذا تشبيه من جهة الصعوبة فيهما لا يشتبه [كذا والصواب تشبيه] بالنفس" (ص184). ثم يعود في موضع آخر فيقسم التشبيه قسمين، فهو " إما بالنفس، وإما لمعنى؛ فالذي بالنفس هو الحقيقة كقولك: هذا الماء كهذا الماء، والذي لمعنى كتشبيه العلم بالنور، والمعنى الذي يجمعهما التبيين، لأن النور يضيء فيتبين به، والعلم يوضح فيتبين به"(ص185). وفي موضع ثالث يقول: "ومن التشبيه بلاغة وحقيقة، فالبلاغة كتشبيه أعمال الكفار بالسراب، والحقيقة نحو: هذا الذهب كهذا الذهب"(ص189).

تأثير الرماني ههنا واضح وطاغ، والأمر لا يقتصر على محاكاة طريقته، بل يتجاوز ذلك إلى نقل مادته نفسها وأمثلته كذلك. لا حاجة بنا إلى الوقوف عند تشبيه البلاغة وتشبيه الحقيقة حيث يكرر ابن خلف تكريراً ما جاء في "النكت". ومع أن الرماني لم يذكر التحقيق والتقدير، فإن ابن خلف إنما يدلّ بهذين المصطلحين على ما ورد في "النكت" عن " تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما، وتشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما مشترك بينهما"، مستخدماً أمثلة الرماني لهذين القسمين. وعبارات الرماني الأخيرة هذه اشتقّ منها ابن خلف تقسيمه الآخر للتشبيه إلى ما كان بالنفس وما كان لمعنى؛ فالتشبيه بالنفس مأخوذ من قول الرماني "تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما"، والتشبيه لمعنى من قوله "تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما مشترك بينهما". والأمثلة أيضاً هي في معظمها أمثلة "النكت"؛ فإذا نازعته نفسه إلى الانعتاق من تأثير الرماني بأن يستبدل بأمثلته أمثلة غيرها، فإنه يقدها على قياس أمثلة "النكت"(38)، أويغير مثال الرماني بمثال للرماني نفسه، وذلك بأن ينقله من موضعه الذي كان فيه في "النكت" إلى موضع آخر(39).

وما رأيناه من تكرار في تقسيمات الرماني نجده ههنا على نحو أوضح، وحسبك شاهداً على ذلك أن تقسيماً واحداً عنده أصبح اثنين في "مواد البيان" كما مر قبل قليل. تقسيمات ابن خلف الثلاثة الأخيرة ترتد في نهاية الأمر إلى مضمون واحد؛ فتشبيه التحقيق والتشبيه بالنفس وتشبيه الحقيقة ثلاثة مصطلحات تدلّ على كون المشبه والمشبه به شيئين متفقين، وتشبيه التقدير والتشبيه لمعنى وتشبيه البلاغة كلها تشير إلى أن طرفي التشبيه شيئان مختلفان بينهما وجه شبه أو معنى جامع. وابن خلف نفسه يدرك هذا التكرار وقد صرح به في غير موضع، فقد ذكر أن تشبيه التحقيق "هو التشبيه بالنفس" (ص184)، وأن التشبيه "الذي بالنفس هو الحقيقة" (ص185)، وأن"تشبيه البلاغة يسمى تشبيه التقدير" (ص189). ما يمكن أن يقال في تفسير ما في هذه التقسيمات من تكرار لم يغب عن ابن خلف نفسه وهو أنها وجوه مختلفة لحقيقة واحدة، أو أنها تلك الحقيقة منظوراً إليها من جهات مختلفة؛ فالتشبيه إما أن يقع بين شيئين متماثلين، فيكون تشبيهاً للشيء بنفسه (التشبيه بالنفس)، وما كان كذلك يصدق عليه مفهوم التشبيه ويتحقق فيه فعلاً (تشبيه التحقيق)، فصار بذلك هو الأصل في التشبيه وهو حقيقته (تشبيه الحقيقة). وإما أن يكون التشبيه بين شيئين مختلفين لمعنى يجمع بينهما (التشبيه لمعنى)، فهو تشبيه من وجه دون وجه، وهذا ليس هو الأصل ولكنه قياس على الأصل (تشبيه التقدير(40))، وهو أخيراً التشبيه الذي يدور على ألسنة الشعراء والأدباء (تشبيه البلاغة).

ثمة قسمة أخرى للتشبيه عند ابن خلف غير تلك التقسيمات المنطقية: "التشبيه تشبيهان: حسن وقبيح؛ فالحسن ما أخرج الأغمض إلى الأظهر فأفاد بياناً وأخبر عن حقيقة الشيء . والقبيح ما كان على خلاف ذلك" (ص191 – 192). وحقاً أن الرماني لم يقسم التشبيه على هذا النحو، ولكن ابن خلف إنما استمد تقسيمه هذا من قول الرماني: " والتشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر...فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما يكسب بياناً فيهما" (ص75). ما فعله ابن خلف هو أنه سمى هذا النوع تشبيهاً حسناً، ولما كان الضد يستدعي ضده فقد سمى ما كان على خلاف ذلك تشبيهاً قبيحاً.

بعض تقسيمات ابن خلف التي استوحاها من الرماني نجدها تتكرر عند ابن رشيق الذي ينفرد بنسبتها إلى الرماني نفسه، فهو ينسب إليه قسمة التشبيه إلى حسن وقبيح، وإلى تشبيه تحقيق وتشبيه تقدير(41)، ثم يتجاوز ذلك فينسب إليه ما لا أصل له في "النكت"، أو ما ليس له أدنى صلة بما جاء هناك(42). ومعرفة حقيقة الصلة بين ابن رشيق والرماني تحتاج إلى بحث مفرد كما تقدم القول في ذلك، وما يمكن قوله في هذا الموضع (وذلك معلق على الوصول إلى نتيجة حاسمة بشأن تلك الصلة) هو أن ابن رشيق يقدم نفسه لقارئه على أنه شديد التأثر بتقسيمات الرماني، وهذا يضعه – لو صح كلامه – في مرتبة تالية لابن خلف في هذا الشأن بخاصة. على أنه يتعين علينا أن نشير ههنا إلى أن ثمة تنافراً ما بين مفهوم ابن رشيق للتشبيه وما يردده من تقسيمه إلى تحقيق وتقدير(بالمعنى نفسه الذي رأيناه عند ابن خلف)؛ فمفهومه هذا الذي صدر فيه عن فكرة التغاير والتباعد بين طرفي التشبيه إنما يصدق على تشبيه التقدير وحده، وبذلك فإنه في حديثه عن تشبيه التحقيق ُيظهر عدم قدرته على الاستمرار في فكرته تلك وعجزه عن الخروج من الدائرة التي رسمها الرماني، فهو يعود إلى مبدأ التطابق بين المتشابهين الذي سبق أن رفضه وأنكره. وما اقتبسناه من قبل من قوله إن التشبيه بين الشيئين المختلفين إنما يكون " بالمقاربة، على المسامحة والاصطلاح لا على الحقيقة"، يزيد هذا العجز وضوحاً وبياناً، فقوله هذا يلزم منه أن حقيقة التشبيه أن يكون كما يرى الرماني بين شيئين متطابقين، وأن التشبيه بين المختلفين خروج على تلك الحقيقة. ومعنى ذلك أن ابن رشيق يقر في نهاية الأمر، واعياً أو غير واع، بفكرة التطابق بين المتشابهين وأنها الأصل، وعندئذٍ لا بد له من أن يقر أيضاً بما تفضي إليه تلك الفكرة من تقسيم التشبيه إلى حقيقة وبلاغة.

تقسيمات الرماني تتردد أصداؤها عند أبي هلال العسكري أيضاً، وهو– كما رأينا في غير موضع– لم يستطع التحرر من تأثير الرماني، وإن كان يبدي ميلاً واضحاً إلى الاستقلال عنه. ولعله استهوته تلك الرياضة العقلية في تقسيمات الرماني، ولكنه فيما يبدو لم يجد لها قيمة بلاغية، فاقتصر تأثره بها على فقرة قصيرة في "الصناعتين" أراد بها أن يحاكي صاحب "النكت"، يقول: "والتشبيه على ثلاثة أوجه: فواحد منها تشبيه شيئين متفقين من جهة اللون مثل تشبيه الليلة بالليلة والماء بالماء والغراب بالغراب والحرة بالحرة، والآخر تشبيه شيئين متفقين يعرف اتفاقهما بدليل كتشبيه الجوهر بالجوهر والسواد بالسواد، والثالث تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما كتشبيه البيان بالسحر والمعنى الذي يجمعهما لطافة التدبير ودقّة المسالك، وتشبيه الشدة بالموت والمعنى الذي يجمعهما كراهية الحال وصعوبة الأمر" (ص240).

هذا التقسيم الثلاثي هو إعادة صياغة لذلك التقسيم الثنائي للتشبيه عند الرماني إلى ما كان طرفاه متفقين أو مختلفين، والأمثلة أيضاً مأخوذة في معظمها من "النكت"(43). ولكن التغييرات التي أحدثها أبو هلال نشأ عنها غير واحد من أوجه الخلل والاضطراب؛ القسم الثالث عنده واضح بين لا يحتاج إلى تفسير، فقد نقله عن الرماني ولم يغير فيه شيئاً . ولكننا قد لا نستطيع البتة أن نعرف المقصود بكل من القسمين الآخرين، ولا أن نعرف الفرق بينهما كذلك، فثمة أسئلة لا يجد المرء جواباً لها: ما معنى قوله في القسم الثاني " يعرف اتفاقهما بدليل"؟ ولم كان تشبيه السواد بالسواد داخلاً في هذا القسم وليس في القسم الأول الذي يتفق فيه المتشابهان من جهة اللون؟ وكيف يكون تشبيه الليلة بالليلة والغراب بالغراب قسماً ويكون تشبيه الجوهر بالجوهر قسماً آخر مقابلاً له؟ ولم كان اللون وحده وجهاً من وجوه الاتفاق (القسم الأول)، مع أن أبا هلال نفسه قد أشار إلى وجوه أخرى في تقسيم آخر (انظر ص245 وما بعدها) لم يتأثر فيه بالرماني؟ وفضلاً عما تقدم فإن تشبيه شيئين متفقين من جهة اللون وحده يصدق على قولنا شعر كالليل أو كالفحم، أما ما مثل به أبوهلال من تشبيه الليلة بالليلة والماء بالماء، فإنه تشبيه بين طرفين متفقين في كل شيء لا في اللون وحده. البلاغيون، وفيهم أبو هلال، يتحدثون عن صحة التقسيم وفساده(44)، وتقسيمه هذا لا يخلو من فساد، لأن القسمة المنطقية تقتضي وجود ضربين لا ثلاثة: فإما أن يكون طرفا التشبيه متفقين، وإما أن يكونا مختلفين، وأية تقسيمات أخرى فإنما هي تفريعات على هذين الضربين المتقابلين. وعلى ذلك فإن القسمين الأول والثاني عند أبي هلال – إذا سلّمنا بوجود فرق

بينهما – فرعان على الضرب الأول، كما أن كلاً منهما يقتضي وجود مقابل له لم يرد في "الصناعتين"، فالتشابه في اللون يستدعى مشابهة في أمور غيره كالصورة مثلاً، والاتفاق الذي ُيحتاج في معرفته إلى دليل حقه أن يقابله ما لا يحتاج إلى دليل. من الواضح أن محاولة أبي هلال مجاراة الرماني في تقسيماته أو التجديد فيها كانت مضطربة غير متماسكة.

- و -

أهم أقسام التشبيه عند الرماني هو تشبيه البلاغة الذي يسميه أيضاً "التشبيه البليغ"، لقد احتفل به واستأثر الحديث عن فائدته أو وجه البلاغة فيه بقدر كبير من عنايته، وعنده أن الغرض منه البيان والإيضاح، يقول في ذلك: "والتشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر... وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء، وتظهر فيه بلاغة البلغاء؛ وذلك أنه يكسب الكلام بياناً عجيباً، وهو على طبقات في الحسن كما بينا، فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما يكسب بياناً فيهما"(ص75). ثم يقول فيما يشبه أن يكون تفسيراً لما ذكره أو تفصيلاً له: " والأظهر الذي يقع فيه البيان بالتشبيه به على وجوه: منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، ومنها إخراج ما لم تجر [به(45)] عادة إلى ما جرت به عادة، ومنها إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة، ومنها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة" (ص75 أيضاً).

ومعنى ذلك أن البيان الذي هو الغرض من التشبيه وسر بلاغته إنما هو في تشبيه الشيء بما هو أظهر منه وأوضح، كتشبيه المعنوي بالمحسوس أو المحسوس بما هو أعرق منه في الصفات الحسية(46)، كما يتبين ذلك في الوجوه الأربعة التي ذكرها. ولسنا على يقين من أنه جاء بها على سبيل التمثيل أم الحصر؛ فقوله "منها" يدلّ على التبعيض، ولكن سياق كلامه لا يخرج عن هذه الوجوه الأربعة، مما يرجح أنه عدد تلك الوجوه لا على سبيل التمثيل بل على أنها الصور المحتملة لما يمكن أن يكون عليه "إخراج الأغمض إلى الأظهر"، أو هي صور العلاقة بين طرفي التشبيه التي بها يتفوق المشبه به على المشبه في الظهور والبيان كأن يكون أولهما محسوساً والثاني مما لا يدرك بالحواس وهكذا.

ذكر الرماني مثالاً تعليمياً واحداً لكل من تلك الوجوه الأربعة، ثم شرع يمثل لها بعدد من التشبيهات القرآنية التي حرص على أن تأتي مرتّبة على وفق ترتيب الوجوه الأربعة، فالتشبيهات المتعلقة بالوجه الأول جاءت أولاً ثم تلتها تشبيهات الوجه الثاني وهكذا. ولا يكتفي الرماني بإيراد هذه الأمثلة القرآنية، بل يحلّل التشبيه فيها مبيناً ما فيه من بلاغة وبيان. ومما تجدر ملاحظته هنا أن الأمثلة القرآنية الكثيرة التي يوردها ليس من بينها التشبيه القرآني المشهور في وصف شجرة الزقّوم {طلعها كأنه رؤوس الشياطين} (الصافات، 65). ولا يتصور أن الرماني ليس على علم بالجدل الذي أثارته هذه الآية التي استوقفت كثيراً من البلاغيين قبله وبعده(47) لكونها تتضمن التشبيه بما لم نره. والظاهر أنه قد آثر عدم الخوض في هذه المسألة لكي تسلم له وجوه التشبيه الأربعة التي يصعب إدخال هذه الآية في أي منها (إلا على نوع من التأويل كما سنرى عند ابن سنان). بعض المتأخرين جعل هذه الآية مثالاً لوجه خامس أضافه إلى تلك الوجوه الأربعة وهو تشبيه " ما تقع عليه الحاسة بما لا تقع"(48)، وهذه زيادة تخالف مخالفة جوهرية تصنيف الرماني الذي أسسه على الانتقال من المعنوي إلى المحسوس(49).

وجوه الرماني الأربعة وتحليلاته للتشبيهات القرآنية حظيت بشهرة واسعة، مما يجعل الإفاضة في شرحها والاقتباس منها ضرباً من التكرار، على أن ثمة ملاحظات لا بد منها هنا وسوف نحتاج إليها عند حديثنا عن تأثيرات هذه الوجوه الأربعة في كتابات خلفائه: إذا تأملتَ هذه الوجوه وجدت أن الثلاثة الأولى منها شديدة التداخل على نحو يصعب معه على المرء أن يجد فروقاً واضحة بينها(50)، والوجه الثالث منها بخاصة ليس له معالم متميزة تجعل منه ضرباً مستقلاً برأسه. ولعل أمثلة الرماني نفسها تبين ذلك؛ دونك مثلاً التشبيه في قوله تعالى{وجنة عرضها كعرض السماء والأرض} (الحديد، 21)، وقد عده من باب إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بها (انظر ص77)، فلِم لا يكون ذلك تشبيهاً لغير المعتاد بالمعتاد، فإن عرض السماء والأرض معهود وعرض الجنة غير معهود؟ وكيف يكون قوله تعالى {مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف} (ابراهيم، 18) تشبيهاً لغير المحسوس بالمحسوس (انظر ص 76)، ويكون قوله تعالى {مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت} (العنكبوت، 41) تشبيهاً أخرج فيه ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بها (انظر ص 78)؟ ولم عد قوله تعالى {تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر} (القمر،20) من تشبيه غير المعتاد بالمعتاد (انظر ص77)، وقوله تعالى {فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية} (الحاقة، 7) من تشبيه ما لا يعلم بالبديهة بما يعلم بها (انظر ص78)؟

والحق أن مفهوم الوجه الثالث (إخراج ما لا يعلم بالبديهة الخ ...) غامض جداً، ويصعب فصله عن الوجهين الآخرين (تشبيه غير المحسوس بالمحسوس وغير المعتاد بالمعتاد)، كما ان الحدود بين هذين الوجهين الأخيرين ليست حاسمة؛ صحيحٌ أن أحدهما يشبه فيه غير المحسوس بالمحسوس والآخر يشبه فيه محسوس غير معهود (أي ما يمكن أن يدركه الحس لو وقع) بمحسوس معهود، ولكن لا فرق بينهما من الناحية الفعلية، فالمشبه به في الحالين محسوس مشاهد، والمشبه غير محسوس: إما لأنه غير مدرك بالحواس أصلاً، أو لأنه لا يقع تحت الحواس كنتق الجبل، أي قلعه ورفعه، في قوله تعالى {وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلّة} (الأعراف، 171)، أو انشقاق السماء في قوله تعالى {فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان} (الرحمن، 37). وهذان المثالان هما أوضح أمثلة الرماني على تشبيه غير المعهود بالمعهود (انظر ص 76 – 77) .

ومع أن مفهوم الوجه الرابع واضح في نفسه متميز مما عداه، إلا أنه لا يتمثل حقاً إلا في واحد من التشبيهات القرآنية الأربعة التي أوردها الرماني عليه، وهو تشبيه السفن بالجبال في قوله تعالى {وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام} (الرحمن، 24). وهذا التشبيه أيضاً هو وحده الذي علق عليه الرماني بما يناسب ذلك المفهوم، فقد قال عن طرفيه (ص78): "وقد اجتمعا في العظم، إلا أن الجبال أعظم"(51). أما التشبيهات الثلاثة الأخرى، فإن المرء لا يتبين صلتها بمفهوم الوجه الرابع هذا، وقد حرص البلاغيون الذين أخذوا عنه وجوهه الأربعة على ألا يمثلوا بها على هذا الوجه (أبو هلال العسكري مثلاً نقل كل أمثلة الرماني القرآنية في باب التشبيه ما عدا هذه التشبيهات الثلاثة)، وليس من سبب يمكن أن نفسر به ذلك سوى أن هؤلاء البلاغيين لم يجدوا صلة بين هذه التشبيهات ومفهوم الوجه الرابع الذي نتحدث عنه(52). والرماني نفسه لم يعتنِ ببيان هذه الصلة، ففي تعليقه على قوله تعالى {خلق الإنسان من صلصال كالفخار} (الرحمن، 14) يقول: "وهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له القوة، وقد اجتمعا في الرخاوة والجفاف، وإن كان أحدهما بالنار والآخر بالريح" (ص78). لقد أشار الرماني ههنا إلى الصفة الجامعة بين طرفي التشبيه، ولكنه لم يذكر كيف كانت هذه الصفة أقوى في المشبه به(53). وأما التشبيهان الآخران فهما قوله تعالى {أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله} (التوبة، 19)، وقوله تعالى {أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات} (الجاثية، 21). ولولا أن أمثلة الرماني مرتبة حسب تسلسل الوجوه الأربعة، كما ذكرنا سابقاً، مما يقطع بأنهما من تشبيهات الوجه الرابع عنده (فضلاً عن أنه لا مكان لهما في الوجوه الثلاثة الأخرى) – لشككنا في كونهما من أمثلة هذا الوجه؛ وذلك أنه في أولهما لم يتطرق قط إلى فكرة إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها، وأما ثانيهما فإنه لم يعلق عليه بكلمة (انظر ص 78- 79)، خلافاً لخطته التي التزمها في تناول الأمثلة القرآنية الأخرى كلها، مما يحمل على الظن أنه هو نفسه لم تتضح عنده صلة هذه التشبيهات بالمفهوم الذي أريد لها أن تمثله.

على أن هذه الوجوه الأربعة وما يتصل بها ظلت كما قلنا أكثر جوانب التشبيه عند الرماني رواجاً من بعده، وقد تفاوت خلفاؤه في مدى إفادتهم منها تفاوتاً بيناً. لا يستوقفنا الباقلاني الذي لا يخوض – كما ذكرنا في غير موضع - في تفصيلات الفنون البلاغية التي نقلها من "النكت"، ولذلك اختفت عنده الوجوه الأربعة وتعليقات الرماني على أمثلتها القرآنية. أما هذه الأمثلة نفسها، فقد أخذها الباقلاني (انظر ص264-266) ما عدا ثلاثة، أحدها (الرعد، 14) ربما سها عن نقله، والثاني والثالث هما آخر مثالين من أمثلة الوجه الرابع، وعدم ورودهما عنده قد يفسره ما ذكرناه قبل قليل في الحديث عنهما.

أما ابن سنان فمن الواضح أنه يستمد تصوره لبلاغة التشبيه وفائدته من الرماني، يقول: " والأصل في حسن التشبيه أن يمثل الغائب الخفي الذي لا يعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد، فيكون حسن هذا لأجل إيضاح المعنى وبيان المراد، أو يمثل الشيء بما هو أعظم وأحسن وأبلغ منه، فيكون حسن ذلك لأجل الغلو والمبالغة" (ص 246). ولكن ابن سنان لا يصر على كون المشبه به محسوساً بالمعنى الحرفي للكلمة، بل يكفي عنده أن يكون بمنزلة المحسوس، ولذلك كانت أمثلته (منها سبعة من المؤكد أنه قد نقلها عن الرماني(54)) قادرة على استيعاب التشبيه القرآني {طلعها كأنه رؤوس الشياطين}؛ صحيحٌ أن رؤوس الشياطين غير مشاهدة، "إلا أنه قد استقر في نفوس الناس من قبح الشياطين ما صار بمنزلة المشاهد، كما استقر في نفوسهم من حسن الحور العين ما صار بمنزلة المشاهد، حتى إنهم إذا شبهوا وجهاً بوجه الحور كان تشبيهاً صحيحاً، وإن كانت الحور لم تشاهد" (ص 254 – 255).

على أن ابن سنان لم يخرج عن الوجوه الأربعة التي ذكرها الرماني، ولكن من المرجح أنه رأى شيئاً قريباً مما رأيناه فيها من غموض وتداخل، فأعاد تصنيفها على نحو يحترز به من هذا التداخل، ويخلصها من ذلك الغموض. لقد

جمع بين الوجهين الأول والثاني في قوله " أن يمثل الغائب الخفي الذي لا يعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد"، وجعل منهما قسماً واحداً، وقد رأيتَ أن الحدود بين هذين الوجهين مبهمة غير متعينة. كما أسقط الوجه الثالث واطرحه نهائياً، وألحق أمثلته التي أخذها من الرماني بهذا القسم أيضاً(55)، وقد ذكرنا أن الوجه الثالث، فضلاً عن تداخله مع الوجهين السابقين، ليست له معالم متميزة. وبذلك فقد آلت الوجوه الثلاثة الأولى عند الرماني إلى أن تصبح قسماً واحداً في "سر الفصاحة"، لأن ابن سنان فيما نرجح لم ير بينها فروقاً تسوغ للمرء أن يعد كلاً منها ضرباً قائماً بنفسه. أما الوجه الرابع في تصنيف الرماني، فمن الواضح أنه يختلف اختلافاً ظاهراً عن الوجوه الأخرى، ولذلك ظلّ عند ابن سنان على حاله لم يغير في حقيقته شيئاً، وإن اختلفت عبارته في وصفه (أن "يمثل الشيء بما هو أعظم وأحسن وأبلغ منه") عن عبارة الرماني.

وهكذا فقد اختصر ابن سنان وجوه الرماني الأربعة في قسمين أو وجهين اثنين فقط. وقد أدى اقتصاره عليهما إلى أن يكون كل منهما ذا طبيعة مختلفة عن الآخر، وبذلك انتفى ما رأيناه في تصنيف الرماني من تداخل وغموض. على أن التمايز بين هذين القسمين لا يقف عند هذا الحد، بل يتجاوزه إلى التباين في الغرض من التشبيه في كل منهما. فائدة التشبيه في القسم الأول "إيضاح المعنى وبيان المراد"، فالشيء الغائب أو الخفي أو غير المعتاد يكتسب وضوحاً أو بياناً عندما يشبه بالظاهر المحسوس المعتاد. أما القسم الثاني فالغرض منه "الغلو والمبالغة": هنا يشبه الشيء بما هو أقوى منه في وجه الشبه، فيكون في ذلك مبالغة في وصفه بالصفة المقصودة؛ تشبيه السفن بالجبال في سورة الرحمن فيه من المبالغة في وصف ضخامة السفن ما لا يوجد في مجرد وصفها بأنها عظيمة أو ضخمة. الرماني لا يرى إلا الإبانة غرضاً للتشبيه بما في ذلك هذا القسم الثاني الذي يقابل الوجه الرابع عنده، مما يقتضي أن يكون المقصود بتشبيه السفن بالجبال هو أن يتبين المخاطب ضخامة هذه السفن وتتضح صورتها في ذهنه. أما ابن سنان فلعله يرى أن تلك الضخامة أمر ظاهر لا يحتاج إلى مزيد إيضاح وفضل بيان، فلا بد إذاً من أن يكون لهذا التشبيه غرض آخر، وذلك الغرض هو تفخيم شأنها، وتهويله في ذهن المخاطب، وحمله على التعجب من ضخامة حجمها لا مجرد مساعدته على إدراك ذلك الحجم، وبذلك فإن هذا التشبيه يقوي الصفة في المشبه ويعظمها أكثر من كونه يوضح صفة هي واضحة أصلاً. ورأي ابن سنان هنا أدعى إلى القبول مما جاء في "النكت"، فالغرض من التشبيه عند الرماني "إخراج الأغمض إلى الأظهر"، وهذا يصدق على وجوهه الثلاثة الأولى التي يرد فيها المجهول إلى المعلوم، ويقارن الغامض بالظاهر، ويوضع الظاهر بإزاء ما هو أظهر منه، فيكون للتشبيه عندئذ غرض إيضاحي، بخلاف الوجه الرابع الذي لا يتفاوت فيه الطرفان وضوحاً وغموضاً بقدر ما يكون التفاوت بينهما إنما هو في قوة وجه الشبه أو الصفة المقصودة(56).

أبو هلال العسكري أيضاً لا يذهب مذهب الرماني في قصر الغرض من التشبيه على الإيضاح والبيان؛ التشبيه الحسن البليغ عند أبي هلال "يزيد المعنى وضوحاً، ويكسبه تأكيداً" (ص 243)، والتشبيه القبيح ما كان على خلاف ذلك " من إخراج الظاهر فيه إلى الخافي، والمكشوف إلى المستور، والكبير إلى الصغير" (ص 257). التشبيه إذاً له فائدتان: الأولى الإيضاح أو البيان بإخراج الخافي إلى الظاهر والمستور إلى المكشوف، والثانية التأكيد بإخراج الصغير إلى الكبير. وهذه الفائدة الثانية اشتقها أبوهلال من الوجه الرابع عند الرماني، والأرجح أنه مثل ابن سنان يرى أن هذا الوجه مختلف في طبيعته والغرض منه اختلافاً ظاهراً عن الوجوه الأخرى، ولكنه جعل فائدته التوكيد بينما هي عند ابن سنان المبالغة. ولعلك لا تجد فرقاً كبيراً ههنا بين المبالغة والتوكيد؛ إذ يستوي أن نقول في تشبيه السفن بالجبال إن القصد منه المبالغة في وصف هذه السفن بالعظم والضخامة أو تأكيد اتصافها بهذه الصفة. وأبو هلال نفسه ذكر في موضع آخر أن قولك: زيد كالأسد "داخل في محمود المبالغة" (ص239). إن المبالغة في وصف المشبه بالصفة المقصودة هي في الوقت نفسه تأكيد لوجودها فيه.

على أن أبا هلال قنع بهذه الإشارة العجلى إلى مسألتي التوكيد والمبالغة، فلم يزد شيئاً على ما اقتبسناه منه قبل قليل، ثم مضى يكرر تكريراً وجوه الرماني الأربعة وأمثلتها القرآنية (التي أخذها كلها ما عدا ثلاثة من أمثلة الوجه الرابع كما ذكرنا سابقاً) وتعليقاته عليها. صحيحٌ أن أحد التشبيهات القرآنية التي وردت عند أبي هلال ليس بعينه التشبيه الذي جاء في "النكت"، فقد استبدل بمثال الرماني، وهو قوله تعالى {وجنة عرضها كعرض السماء والأرض} (الحديد، 21) قوله عز وجلّ {وجنة عرضها السموات والأرض} (آل عمران، 133)، ولكن الآيتين من حيث دلالتهما على الغرض الذي يريده الرماني وأبو هلال جميعاً هما بمنزلة مثال واحد. ولا أدلّ على ذلك من أن أبا هلال وهو يتحدث عن آية آل عمران لم يزد على أن أعاد عبارات الرماني نفسها في الكلام على آية سورة الحديد(57)، فلم يجد ما يعلق به على هذه الآية التي لم ينقلها عن "النكت" إلا أن يأخذ كلام الرماني على

آية تشبهها. وما فعله أبو هلال ههنا له دلالته على الطريقة التي انتهجها في الاستفادة مما جاء عند الرماني في هذا الباب، فهو يحاول الاستقلال عنه، ولكنه في حقيقة الأمر غير قادر على تجاوزه.

يعيد أبو هلال ترتيب مادة الرماني المتصلة بالوجوه الأربعة، فيحذف الأمثلة التوضيحية مقتصراً على التشبيهات القرآنية التي يصنفها في أربع مجموعات، كل مجموعة منها تتبع وجهاً من تلك الوجوه. ولكن الرماني نفسه- وإن لم يصنف تلك التشبيهات صراحةً على هذا النحو- حرص على أن يجمع معاً ما اتصل منها بكل من الوجوه الأربعة. وحتى تعاقب هذه الأمثلة (الأول فالثاني فالثالث... الخ) لم يختلف قط في"الصناعتين" عما كان عليه في "النكت"، كما أن تعليقات أبي هلال على تلك الأمثلة مأخوذة من "النكت"، ينقلها بألفاظ الرماني نفسها، فكأنه ما زاد على أن وضع ما يشبه أن يكون عناوين فرعية لمادة الرماني(58).

على أن أبا هلال يتصرف في النقل، وغالباً ما يكون ذلك بحذف بعض الألفاظ من كلام الرماني، وربما قصد بذلك الاختصار أو تهذيب عبارة "النكت"، ولكننا لا نستطيع أن نستبعد أنه يفعل ذلك لكي يجعل نفسه مختلفاً عن الرماني، فذلك واضح جداً في استبداله بالآية نظيرتها كما تقدم، وفي التصرف بعبارات الرماني بالتقديم والتأخير دونما سبب ظاهر يدعو إلى ذلك، أو تغييرها بما لا يخرج عن معناها كما في تعليقه على قوله تعالى {كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء} (النور، 39)؛ إذ يقول (ص240): "لأن الظمآن أشد فاقة إليه [الماء]، وأعظم حرصاً عليه"، وأصل ذلك عند الرماني (ص 75): "لأن الظمآن أشد حرصاً عليه، وتعلق قلب به". جدير بالملاحظة أيضاً أن أبا هلال وهو يورد التشبيهات القرآنية يحرص غالباً على أن يحذف بعضاً من الآية التي نقلها من "النكت". قد يكون فعل ذلك من باب الاختصار، وربما دفعه إليه نزوعه إلى أن يبدو مختلفاً عن الرماني. ولكن أياً ما كان السبب، فإن ذلك قد أوقعه في مزالق؛ فالجزء المحذوف من الآية (وهو عادة يحتوي على المشبه) لا بد من ذكره، وهو يشير إليه في تعليقه على الآية، فكأنه - وقد حذف مرجع التعليق- يحيل على مجهول. انظر مثلاً إلى تعليقه على قوله تعالى {كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً} (العنكبوت، 41)، يقول: "فالجامع بين الأمرين ضعف المعتمد" (ص 242)، وليس ثمة إلا أمر واحد أمام القارئ؛ ذلك أن أول هذه الآية، وهو قوله تعالى {مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء}، محذوف.

علي بن خلف أيضاً ينقل عن الرماني ويحاول أن يغير في صورة المادة المنقولة، وقد لا تجد سبباً لذلك أحياناً إلا أن تقول إنه يريد أن يضع بين يديك شيئاً مختلفاً اختلافاً ما عما تجده في" النكت". الرماني مثلاً يذكر الوجوه الأربعة أولاً، وبعد أن يفرغ منها يذكر مثالاً توضيحياً لكل منها، وابن خلف يذكر كل وجه منها متلواً بمثاله. وأبلغ من ذلك في الدلالة على ما نقول أن "تشبيه ضياء السراج بضياء النهار"، وهو مثال الرماني على الوجه الرابع، يصبح عند ابن خلف " تشبيه ضياء الذبالة بضياء النهار"(59)، فأستبدل بالسراج ذبالته. أما الاختلاف الحقيقي بينهما في هذا السياق فإنما هو في التشبيهات القرآنية التي أكثر الرماني منها واقتصر- إذا تركنا الأمثلة التعليمية- عليها، بينما لا تجد في أمثلة ابن خلف على التشبيه إلا خمسة تشبيهات قرآنية. ومع أنها جميعاً مذكورة في "النكت"، إلا أنها جاءت عند ابن خلف في غير السياق الذي وردت فيه هناك، كما ان تأثير الرماني متفاوت في هذا الباب، فثلاث من تلك الآيات الخمس علق ابن خلف على كل واحدة منها بعبارة قصيرة مجتزأة من كلام الرماني عليها، وأفاد من تحليل الرماني للآية الرابعة دون أن يتقيد بعبارته، ولم يورد شيئاً مما علق به الرماني على الآية الخامسة وإن كان من غير المستبعد أنه قد أخذها من حيث كونها مثالاً على التشبيه من" النكت"(60).

لم يتوسع ابن خلف في الأمثلة القرآنية، فكان أن جاء تأثير الرماني في هذا الجانب بخاصة محدوداً، وذلك ناشئ عن اختلاف الموضوع الذي يؤلف فيه كل منهما: التأليف في إعجاز القرآن أفضى بالرماني إلى الاقتصار على التشبيهات القرآنية، أما ابن خلف فموضوعه صناعة الكتابة، وذلك يتطلب منه التنويع في أمثلته، فضلاً عما تقتضيه دواعي الإيجاز في كتابه الذي أراده كما يقول (ص92) أن يكون" جامعاً لما تنظمه [لعلها تنتظمه] صناعة الكتابة من العلوم والآداب الخاصة بها". صحيحٌ أن التشبيهات القرآنية عند أبي هلال كادت تقترب في عددها مما جاء في "النكت" مع أن كتابه في صناعتي الشعر والنثر، ولكن أول أغراضه (انظر ص1) معرفة إعجاز القرآن، كما ان ضيق مجال كتابه قياساً إلى "مواد البيان" (الذي كانت الفنون البلاغية بعض ما احتواه كتابه من موضوعات متعددة) جعل حاجته إلى الإيجاز أقلّ إلحاحاً مما عليه الحال عند ابن خلف، يؤيد ذلك أن التشبيهات غير القرآنية أكثر أيضاً في "الصناعتين" منها في "مواد البيان"، ومبحث التشبيه في أولهما (انظر ص 239- 259) أوسع كثيراً منه في الثاني (انظر ص184- 194)، مع أن "الصناعتين" أقلّ حجماً من كتاب ابن خلف.

فإذا تركنا موضوع الأمثلة وجدنا ابن خلف يسرع في

العودة إلى ما عهدناه فيه من التصاق شديد بالرماني؛ ففي حديثه عن بلاغة التشبيه ينقل نقلاً يكاد يكون حرفياً ما جاء في "النكت" من أن بلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يكسب بيان أحدهما بالآخر، وأن التشبيه البليغ يخرج الأغمض إلى الأظهر، وأن البلغاء يتفاضلون في ذلك، كما ينقل عنه وجوه التشبيه الأربعة مردداً أمثلته التوضيحية كذلك(61).

ابن خلف يتابع الرماني في أن الغرض من التشبيه هو الإيضاح والبيان، ومثله في ذلك ابن رشيق الذي يرى أن فائدة التشبيه "إنما هي تقريب المشبه من فهم السامع وإيضاحه له" (ج1، ص290). كل منهما يتقيد بمقالة الرماني في هذا الباب دون أن يغير فيها أو أن يضيف إليها، خلافاً لأبي هلال وابن سنان اللذين لم يكتفيا بغرض الإيضاح وحده. على أن تأثير"النكت" في "عمدة" ابن رشيق في هذا السياق لا يكاد يتجاوز فكرة البيان والإيضاح، فتحليلات الرماني للتشبيهات القرآنية لا أثر لها ههنا، وأما هذه التشبيهات نفسها فإن واحداً منها فقط مشترك بينه وبين ابن رشيق(62)، ومن الصعب أن ينسب هذا الاشتراك إلى تأثره به؛ فابن رشيق يكتفي بإيراد التشبيهات القرآنية دون أن يقول كلمة في التعليق عليها، ولو فعل لعرفنا إن كانت عبارته توافق عبارة الرماني أو تستقلّ عنها، ولذلك فإن التقاءهما في مثال واحد فقط قد لا يزيد على كونه وقع اتفاقاً ومصادفة. أما وجوه الرماني الأربعة فإن ابن رشيق لا يذكرها، ولكنه ينسب إلى الرماني كلاماً في شرحها، فجاء كلامه مبتوراً؛ إذ يورد شرحاً دون أن يثبت الأصل المشروح. ما هو أهم من ذلك أن ما ينسبه إلى الرماني ههنا، كما هي الحال في مواضع أخرى أشرنا إلى بعضها فيما سبق، غير موجود في "النكت"، بل يختلف في معظمه اختلافاً واضحاً عما ذكره الرماني(63).

ابن رشيق وغيره من خلفاء الرماني ممن تناولناهم آنفاً تأثروا به في غير جانب من جوانب التشبيه السابقة، ولكن ثمة آخرين لم يتأثروا بالرماني إلا في تلك الوجوه الأربعة أو ما يتصل بها. لقد انتفع بها أبو علي المرزوقي في شرحه حماسة أبي تمام؛ فمن التشبيهات التي تضمنتها أبيات الحماسة ما يعده مما"أبرز ما يقلّ في الاعتياد في صورة ما يكثر فيه" (ج1، ص37)، ومنها ما "أخرج ما لا يدرك بالحس إلى ما يدرك حتى تجلى فصار كالمشاهد" (ج1، ص63-64). والتشبيهات التي تأتي على هذا النحو مرتبطة عنده بما يسميه "التصوير"(64)، وهو أن يحسن الشاعر نعت الشيء الموصوف حتى يتمثله المتلقي كأنه يراه. و"التشبيه الصائب المتناهي في الدلالة على حالة المشبه"، كما يقول (ج2، ص749)، من أهم الأدوات التي تفضي إلى هذا الغرض؛ ففيه يتصور المشبه غير المحسوس في صورة المحسوس، وغير المعتاد في صورة المعتاد، وإذا كان كذلك تجلى المشبه فصار كالمشاهد، فيكون التشبيه قد"أخرج ما لا قوة له في التصور إلى ما له قوة فيه" (ج1، ص 36).

التشبيه الذي يتحدث عنه المرزوقي ههنا له غرض إيضاحي بياني، فهو يؤدي كما يقول (ج1، ص 408) إلى " خروج المشبه من الكمون إلى الظهور، ومن الخفاء إلى البروز، حتى يتجلى لمتأمله والمفكر فيه – على بعده في التصور- تجلي القريب في العرف والاعتياد، وهذا هو غاية المراد من التشبيهات". والمرزوقي في ذلك كله يوافق الرماني تماماً، وإن كان أكثر المتأثرين به تحرراً من عبارات" النكت"، فقول الرماني "إخراج الأغمض إلى الأظهر" يصبح عند المرزوقي "إخراج الخافي إلى البيان" (ج4، ص1711)، أو "تصوير للخفي بالجلي" (ج1، ص421). على أن المرزوقي كما يتبين مما اقتبسناه منه قصر هذا الغرض على الوجهين الأول والثاني من وجوه الرماني الأربعة، فلم يشر قطّ إلى الوجه الثالث (إخراج ما لا يعلم بالبديهة الخ ...)، وإيراده بعض أمثلته تحت مسميات أخرى(65) يؤكّد أنه قصد قصداً إلى اطراحه، وقد سبق أن تحدثنا عما فيه من إبهام وتداخل مع غيره. وكذلك لم يجعل الوجه الرابع (إخراج ما لا قوة له في الصفة الخ ...) من التشبيهات التي تجري مجرى التصوير، أي التي تكون غايتها الإيضاح والبيان، وقد رأينا فيما سبق أن لهذا الوجه طبيعة مختلفة عن الوجوه الأخرى. أما قوله "أخرج ما لا قوة له في التصور إلى ما له قوة فيه"، فلا نستطيع أن نعده وجهاً جديداً استحدثه، والأرجح أن هذه عبارة أوجز بها الوجهين اللذين يجري التشبيه فيهما مجرى التصوير (تشبيه غير المحسوس بالمحسوس وغير المعتاد بالمعتاد).

ولعل طبيعة كتاب المرزوقي الذي يتناول الشعر كانت سبباً في أن تأثير "النكت" فيه لم يتجاوز وجوه التشبيه إلى تحليلات الرماني للتشبيهات القرآنية. والعكس من ذلك تماماً تجده عند أبي الحسن المرغيناني في كتابه "المحاسن في النظم والنثر"؛ سبعة من التشبيهات القرآنية التي يوردها في الفصل الذي عقده للتشبيه (انظر ص99-101) مأخوذة من "النكت" مع بعض عبارات الرماني في التعليق عليها، أما الوجوه الأربعة فلم يأتِ على ذكرها قط، وبينما يحرص الرماني في حديثه عن التشبيهات القرآنية على أن يشير إلى كونها من هذا الوجه أو ذاك، فإن المرغيناني حريص على أن يحذف هذه الإشارات من عبارات الرماني التي ينقلها.

ولما كان المرغيناني غير معني بالتعريفات والتقسيمات، بل اقتصر على حشد التشبيهات (القرآنية وغيرها) مع تعليقات سريعة أحياناً – لا جرم أن تأثره بالرماني لا يتعدى هذا القدر الذي ذكرناه.

- ز -

آن لنا الآن أن نعود إلى ما زعمناه في موضع سابق من أن الخلاف بين الرماني ومعارضيه في مسألة التطابق بين طرفي التشبيه، أو بين مفهوم التطابق هذا ومفهوم قدامة في التغاير بين الطرفين، إنما هو خلاف ظاهري لا حقيقي. لقد كان هذان المفهومان أساس التفكير البلاغي في فن التشبيه ومرجع البلاغيين في هذا الباب في المرحلة التي ندرسها، وحقاً أن ظاهر الحال يشير إلى أن بين المفهومين تعارضاً على نحو يبدو معه اللقاء بينهما كالجمع بين الضدين، فالتطابق عكس التغاير، وهذا - كما رأينا فيما سبق - ما فهمه معارضو الرماني(66) الذين استعانوا عليه بقدامة. ولكن قسمة الرماني التشبيه إلى حقيقة و بلاغة – و لعلنا نستطيع أن نقول الآن إن هذه القسمة هي عمدة مفاهيمه في هذا الباب – تصلح أن تكون أساساً نستند إليه في حل هذا الإشكال.

ذكرنا فيما سبق أن تشبيه الحقيقة هو الأصل في التشبيه عند الرماني، على أن تشبيه الدينار بالدينار أو الكرسي بالكرسي أو القميص بالقميص هو مما يسمعه المرء من الصيارفة أو بائعي الأثاث أو تجارالملابس، أما التشبيهات التي يتداولها أهل الأدب فهي مما سماه الرماني" تشبيه بلاغة". وواضحٌ أنه يختار مصطلحاته بعناية؛ فقد سمى النوع الأول "تشبيه حقيقة"، لأن حقيقة التشبيه الذي يشير إلى اتفاق بين طرفين إنما تكون على ذلك النحو، فالاتفاق ههنا أو التشابه بينهما تام لا تشوبه شائبة من اختلاف أو تباين. وسمى الثاني "تشبيه بلاغة"، لأن التشبيه الذي نتحدث عنه في الأدب إنما هو هذا التشبيه لا غيره؛ التشبيهات الأدبية لا تكون بين شيئين متساويين، بل تقع بين شيئين مختلفين بينهما وجه شبه ما(67)، "وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء، وتظهر فيه بلاغة البلغاء"، كما يقول الرماني (ص75)؛ إذ تتبين فيه قدرة الشاعر على إدراك الشبه بين الأمور المتباعدة. ولما كان التشبيه عند جمهور البلاغيين إنما هو هذا التشبيه الأدبي دون سواه، فإن " تشبيه البلاغة" عنده هو نفسه ما اصطلحوا على تسميته تشبيها (ونحن في بحثنا هذا، إذا لم نقيد التشبيه بقولنا تشبيه الحقيقة نستعمله بهذا المعنى الاصطلاحي). وقد أدرك ذلك ابن أبي الإصبع عندما أطلق على "تشبيه البلاغة" هذا اسم "التشبيه الصناعي"، أي الاصطلاحي(68). قدامة، مثل جمهور البلاغيين، إنما يتحدث عن التشبيه الاصطلاحي وحده، وهذا بعينه هو تشبيه البلاغة عند الرماني وهو الذي يكون بين شيئين مختلفين لا متطابقين. وهكذا فإن قدامة والرماني متفقان في أن التشبيه المتعارف عليه بين أهل هذه الصناعة لا بد فيه من التغاير بين طرفيه، بل لعل الرماني الذي يكتفي بوجود معنى مشترك بين الطرفين كان أحرص على فكرة التغاير من قدامة نفسه الذي رأيناه يستحسن كثرة الصفات المشتركة بين المتشابهين "حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد". والرماني، وهو يؤلف ابتداءً في إعجاز القرآن وبلاغته، معني كسائر البلاغيين بهذا التشبيه الاصطلاحي، أو ما سماه تشبيه البلاغة، بل تجده يستعمل مصطلح التشبيه مطلقاً غير مقيد للدلالة على هذا التشبيه المبني على التغاير، يقول: "ونحن نذكر بعض ما جاء في القرآن من التشبيه، وننبه على ما جاء فيه من البيان" (ص75)، وهو يعني بذلك قطعاً التشبيه الاصطلاحي الواقع بين طرفين متغايرين، فلا يعقل أن التشبيه الذي أراد أن يبين به بلاغة القرآن الفائقة يدخل فيه ما كان من باب تشبيه الدينار بالدينار(69).

لقد التبس الأمر على خلفاء الرماني؛ عدم وجود تعارض بينه وبين قدامة جعل أبا هلال العسكري وابن رشيق مثلاً قادرين على التنقل بينهما، ولكن ذلك بدا وكأنه أقرب إلى التردد والحيرة والاضطراب لأن أبا هلال وابن رشيق لم يتبينا حقيقة الفرق بين قدامة الذي تناول التشبيه الاصطلاحي فقط والرماني الذي لم يكتفِ بذلك، بل وضع له مقابلاً أو أصلاً هو ما سماه تشبيه الحقيقة. وكأن الرماني تحدث عن تشبيه الحقيقة هذا، لا على أنه موضوعه في الأساس أو موضع اهتمامه، ولكن ليعارض التشبيه الاصطلاحي به؛ فهذا فرع على ذاك الأصل، والحديث عن الفرع يستدعي الكلام على أصله، وذلك كما يعارض البلاغيون المجاز مثلاً بالحقيقة التي هو فرع عليها ثم لا يكادون يذكرونها بعد ذلك. وإن شئتَ قلت: إنه يقابل ههنا المعنى اللغوي للتشبيه (تشابه الشيئان واشتبها أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا(70)) بمعناه الاصطلاحي (الاشتراك في وجه دون وجه). وكأن الفرق بينه وبين قدامة هو كالفرق بين اثنين تناولا مصطلحاً ما، فاقتصر أحدهما على مفهومه الذي يتداوله أرباب الصناعة التي يستخدم فيها، ولم يقنع الآخر بذلك حتى راح يبحث عن معناه في أصل اللغة. هذا في حد ذاته لا يعني أن ثمة تعارضاً بين الاثنين، بل معناه وحسب أن في كلام أحدهما زيادة على ما جاء به الآخر. احذف من كلام الرماني تشبيه الحقيقة وما يتصل به، ولن تجد عندئذٍ تضارباً ظاهرياً كان أو

حقيقياً بينه وبين قدامة. ولعلنا بذلك نكون قد وفقنا في أن نبين أن المفاهيم التي عرضها الرماني في مبحث التشبيه متّسقة مع التراث البلاغي في هذا الفن، مكملة له، فهي -إذا استثنينا ما اتّصل منها باشتراطه التصريح بأداة التشبيه- لا تخالف ما عليه الجمهور، كما رأينا قبل قليل ، وإن بدت أنها تخالفه.

هذه المفاهيم هي الجانب النظري من مبحث التشبيه عند الرماني، أما الجانب التطبيقي فهو الوجوه الأربعة وما يتصل بها. وقد كان لهذا الجانب التطبيقي، الذي مازال يحظى بإعجاب الدارسين(71)، تأثير واسع عم البلاغيين الذين تناولناهم جميعاً، كما ظلت أصداؤه تتردد إلى ما بعد هذا العصر الذي ندرسه بكثير(72). أما مسائله النظرية فإنها، وإن تأثر بها إيجاباً (بموافقته) أو سلباً (بمخالفته) معظم خلفائه هؤلاء، فإن تأثيرها يتراجع تراجعاً حاداً بظهور عبد القاهر. ويمكن أن يعزى هذا التراجع المفاجئ إلى أن التشبيه بين يدي عبد القاهر دخل طوراً جديداً فيه من الاستقصاء والتفصيل والثراء ما جعل كل بحث قبله في هذا الفن يبدو على قدر من السذاجة إذا قورن به، فكان أن أخمل عبد القاهر الرماني، وشُغل به البلاغيون عن غيره. ولكن لا بد من أن يكون في تلك المسائل النظرية نفسها أيضاً ما حمل القوم على الزهد فيها بعد أن وجدوا عند عبد القاهر ما أغناهم عنها، وآية ذلك أن الجانب التطبيقي استمر تأثيره بعد عبد القاهر.

هذه المسائل فيها من الغموض ما ألجأنا إلى كثير من التأويل والشرح، وأدى إلى اضطراب خلفائه في فهم مراده، وهي أيضاً قد تصبح نوعاً من الرياضة العقلية والتشقيقات المنطقية التي رأى البلاغيون - فيما يبدو- أن لا جدوى لها في الدرس البلاغي. على أن هذه المسائل، فضلاً عن قيمتها التاريخية (سيطرتها على الفكر البلاغي مدة من الزمن)، وما ذكرناه في مطلع هذا البحث من أسباب تدعو إلى دراستها – لا غنى عنها في تناول جوانب أساسية في نظرية التشبيه كعلاقته بالاستعارة مثلاً. والتقليل من شأن تلك المسائل، ولا سيما عند البحث في تأثير الرماني، ينتهي بالمرء إلى نتائج غير دقيقة؛ لقد أخذ أبو هلال أكثر الأمثلة القرآنية وتحليلاتها التي استغرقت معظم مبحث التشبيه في" النكت"، فكان ما نقله عنه يفوق في كميته ما نقله غيره، وهكذا يبدو أبو هلال عند النظرة العجلى أشد خلفائه تأثّراً به. ولكننا رأينا أن ابن خلف هو أقرب البلاغيين إلى تفكير الرماني، وهو الجدير فعلاً بأن يسمى تلميذه، فقد تحمس لأفكاره (أي مسائله النظرية) كلها حماسة لا نجد مثلها أو قريباً منها عند غيره، ولم يخرج عن خطة شيخه حتى في المواضع التي لم يأخذ فيها عنه؛ إذ يحاكي فيها منهجه وأسلوبه ويطور أفكاره أو يولد منها غيرها. ولئن كان اقتصر من أمثلة الرماني، وهي كثيرة، على بعضها – لقد ظلّ يتابعه بدقة في هذا الجانب التطبيقي أيضاً وإن اختصر كلامه. أما أبو هلال فإنه ينتزع فقرات من "النكت" يضمنها كتابه؛ ولما كان مجرد ناقل لعبارات الرماني كان الوقوف على تأثره به أيسر، في حين ان تتبع أثر الرماني في "مواد البيان" قد يحتاج إلى بعض الجهد والمشقة.

وعلى الجملة فإن اقتفاء أثر الرماني لا يخلو من مشقة ما، لأن الذين أفادوا منه كثيراً ما يغفلون الإشارة إلى ذلك. جدير بالملاحظة ههنا أن اسمه يتردد كثيراً على لسان ابن رشيق الذي نشك شكاً عميقاً في حقيقة صلته به، بينما لم يذكره أبو هلال قط والمرزوقي كذلك، واكتفى الباقلاني (ص262) بنسبة ما نقله عنه إلى" بعض أهل الأدب والكلام". أما ابن خلف وابن سنان فقد أشارا إليه حقاً (انظر فهرس الأعلام في" مواد البيان" و"سر الفصاحة")، ولكن في غير باب التشبيه الذي لم يذكره فيه إلا ابن رشيق والمرغيناني. على أن معظم منْ درسناهم هم أعلام البلاغيين في المرحلة التي تناولناها، ولئن تفاوتوا في مدى تأثرهم بمبحث التشبيه عند الرماني، لقد كان مصدرهم الأول. وحقاً أن قدامة يزاحمه أحياناً، وابن طباطبا على قلة(73)، إلا أنه ظلّ إمام البلاغيين في هذا الباب قبل أن ينازعه في هذه الإمامة وينتزعها منه عبد القاهر.

الهوامش

(1) انظر في فن التشبيه عند الرماني، طبانة، البيان العربي، ص39-40؛ ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص104-105؛ أبو زهرة، المعجزة الكبرى، ص241-252؛ عصفور، الصورة الفنية، ص316-321، ص329-337، ص407 وما بعدها؛ عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، ص247-250؛ لاشين، البيان في ضوء أساليب القرآن، ص30-32؛ قصاب، التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة، ص132-134؛ حمدان، أدوات التشبيه، ص9-10؛ التاب، التشبيه، ص88-92؛ الصغير، أصول البيان العربي، ص95-99.

(2) انظر: مواد البيان، ص562 (وانظر ايضاً: مقدمة المحقق، ص11).

(3) انظر: المحاسن في النظم والنثر، مقدمة المحقق (Introduction, 5).

(4) انظر: الصورة الفنية، ص335-336.

(5) انظر: المحاسن في النظم والنثر، مقدمة المحقق (Introduction, 22).

(6) انظر (مثلاً): النكت، مقدمة التحقيق، ص14- 15؛ عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، ص238-239؛ J. Flanagan, Encyclopaedia of Islam, "Al-Rummani".

(7) وقد تابع ابن رشيق في ذلك بعض القدماء (انظر: ابن الأثير، كفاية الطالب، ص 170؛ قارن العمدة ، ج1، ص287) وكثير من المحدثين (انظر مثلاً: مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، ص50؛ عصفور، الصورة الفنية، ص330، ص412 – 414؛ لاشين، البيان في ضوء أساليب القرآن، ص49-50؛ إبراهيم التاب، التشبيه، ص 115، ص 118).

(8) انظر (مثلاً) فضلاً عما سيرد في هذا البحث: ابن رشيق، العمدة، ج1، ص271 (قول الحجاج)، ص272 (قول بعض المولدين)؛ قارن: النكت، ص79-87.

(9) انظر الحاشية"7" قبل قليل.

(10) وهذا ما يظنه محققا "النكت"، انظر: ص152، ح2، وعبد القادر حسين، انظر: أثر النحاة في البحث البلاغي، ص246.

(11) انظر: العمدة، ج1، ص289، وانظر أيضاً: ج1، ص287؛ قارن: ابن خلف، مواد البيان، ص184.

(12) نقد الشعر، ص122.

(13) يقول ابن طبا طبا (322هـ): "أحسن التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقض، بل يكون كل شبه بصاحبه مثل صاحبه، ويكون صاحبه مثله مشتبهاً به صورة ومعنى. وربما أشبه الشيء الشيء صورة وخالفه معنى، وربما أشبهه معنى وخالفه صورة، وربما قاربه وداناه أو شامه وأشبهه مجازاً لا حقيقة"، عيار الشعر، ص11.

(14) نقد الشعر، ص122.

(15) انظر: العمدة،ج1، ص289.

(16) انظر: مواد البيان، ص228.

(17) زيادة يقتضيها السياق.

(18) انظر: إعجاز القرآن، ص275 وما بعدها (وانظر أيضاً: ص 66وما بعدها).

(19) يقول في كتابه الفروق (ص 169): "إن الشيء يشبه بالشيء من وجه واحد لا يكون مثله في الحقيقة إلا إذا أشبهه من جميع الوجوه".

(20) يقول ابن سنان: "ولن يجوز أن يكون احد الشيئين مثل الآخر من جميع الوجوه حتى لا يعقل بينهما تغاير البتة، لأن هذا لو جاز لكان أحد الشيئين هو الآخر بعينه، وذلك محال" (سر الفصاحة، ص246)، وعند ابن رشيق أن الشيء يشبه بالشيء "لا من جميع جهاته، لأنه لو ناسبه مناسبةً كلية لكان إياه "(العمدة، ج1، ص286) .

(21) ذهب عبد العظيم المطعني (انظر: المجاز في اللغة والقرآن الكريم، ج1، ص260) وبسيوني فيود (انظر: دراسات بلاغية، ص108-109) إلى أن الرماني يعد قوله تعالى {فجعلناه هباءً منثوراً} (الفرقان، 23) تشبيهاً لا استعارة لقوله في التعليق عليه إنه "بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه حاسة" (النكت، ص80). ولكن عبارة الرماني هذه لا تختص بالتشبيه لتكون دليلاً على أنه يعد هذا المثال تشبيهاً، بل تصدق على الاستعارة أيضاً، وقد ورد مثلها في تعليقاته على كثير من الآيات التي ذكر صراحة أنها استعارات (انظر مثلاً: ص84-85 في عدة مواضع). ولما كان المثال المذكور قد ورد في باب الاستعارة، فمن الأولى أن يقال إنه يعده استعارة لا تشبيهاً.

(22) الجمان في تشبيهات القرآن، ص63.

(23) انظر: ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص116؛ الخطيب القزويني، التلخيص، ص286- 288؛ وانظر (مثلاً) من المحدثين: الساعي، الصورة الفنية، ص56؛ عودة، المستوى الدلالي للأداة، ص60-61، ص79.

(24) العمدة، ج1، ص292، وانظر أيضا: ج1، ص293، ص294.

(25) انظر: الجرجاني، أسرار البلاغة، ص28؛ ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص71.

(26) استقر الرأي عند البلاغيين على أن حذف الأداة (أو حذفها مع حذف وجه الشبه أيضاً فيما اصطلح على تسميته "التشبيه البليغ") لا يخرج التشبيه عن كونه تشبيهاً. انظر ما قيل في هذا الشأن في كتاب التشبيه البليغ لعبد العظيم المطعني، على أن المطعني يذكر هنا (انظر: ص10، ص59) أن السعد التفتازاني (انظر: مختصر المعاني، ج4 ص50-55) يكاد ينفرد بجعل التشبيه البليغ استعارة ، و لكن المطعني نفسه لاحظ في كتابه الآخر: المجاز في اللغة والقرآن الكريم (انظر: ص258، 260) أن الرماني يدخل هذا التشبيه في الاستعارة.

(27) وبذلك يكون قد سبق القاضي الجرجاني (392هـ)، خلافاً لما ذهب إليه عبد العظيم المطعني في غير موضع من كتابه التشبيه البليغ (انظر: ص11، 13، 14، 15) من أن القاضي الجرجاني (انظر: الوساطة، ص41) هو أول من تناول هذا الموضوع.

(28) جدير بالملاحظة أن هذا هو الاتجاه الذي تسير فيه البلاغة الأوروبية، انظر: Lanham, A Handlist of Rhetorical Terms, "Simile"; Abrams, A Glossary of Literary Terms", Figurative Language; Brooks and Warren,

Understanding Poetry, 204 – 205.

(29) عبارة "من التشبيه" مقحمة ولا يستقيم الكلام إلا بحذفها، وقد ذكر المحققان (ص79، ح2) أن عبارة "ما كان من التشبيه" زيادة من الهامش.

(30) انظر: الصناعتين، ص268؛ العمدة، ج1، ص271.

(31) مواد البيان، ص171، وانظر أيضاً: ص172؛ قارن: النكت، ص79.

(32) كلمة فقط يقتضي السياق حذفها، فهو لا يقر بوجود هذا الفرق أصلاً.

(33) انظر: الصناعتين، ص251؛ العمدة، ج1، ص293، ص294؛ سر الفصاحة، ص119، ص253.

(34) الفوائد، ص66.

(35) يرى شوقي ضيف أن المقصود بذلك التشبيه الحسي والتشبيه العقلي (انظر: البلاغة تطور وتاريخ، ص104)، ولكن ليس في كلام الرماني ما يؤيد ذلك البتة.

(36) يقول أحمد مطلوب عن دراسة الرماني للأبواب البلاغية إنها كانت "بداية الأخذ بالتعريفات المنطقية والتقسيمات الدقيقة التي كانت سمة الكتب بعده" (مناهج بلاغية، ص45).

(37) انظر: ابن رشيق، العمدة، ج1، ص287، 295؛ قارن: مواد البيان، ص184، 187، ص191-192 .

(38) انظر: مواد البيان، ص185 (س 12)؛ قارن: النكت، ص75 (س1).

(39) انظر: مواد البيان، ص185(س11-12)، ص189 (س6)؛ قارن: النكت، ص74 (التشبيه الحسي).

(40) قدر الشيء بالشيء قاسه به وجعله على مقداره، الزمخشري، أساس البلاغة، مادة " ق د ر".

(41) انظر: العمدة، ج1، ص287؛ قارن: مواد البيان، ص191 –192، 184 على التوالي.

(42) انظر مثلاً: العمدة، ج1، ص295 (قارن: مواد البيان، ص187).

(43) انظر: النكت، ص74 (س12)، ص74 (س16)، 75 (س1).

(44) انظر: الصناعتين، ص341- 344؛ قارن (مثلاً): قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص149-152، 226-229.

(45) زيادة يقتضيها السياق.

(46) انظر: جابر عصفور، الصورة الفنية، ص317، 330.

(47) جمع عبد الفتاح لاشين (انظر: البيان في ضوء أساليب القرآن، ص 46-53) أقوال عدد من البلاغيين في هذه الآية، وانظر أيضاً: التاب، التشبيه، ص30، 48-49، 64.

(48) انظر: الزركشي، البرهان، ج3، ص421؛ السيوطي، الإتقان، ج2، ص105.

(49) ينسب إليه ابن رشيق(العمدة، ج1، ص287) أنه استقبح تشبيه المحسوس بالمعنوي، وهذا غير موجود في النكت ولكنه ينسجم مع تفكير الرماني.

(50) للاطلاع على آراء أخرى في نقد الوجوه الأربعة عند الرماني (أوعند أبي هلال العسكري الذي نقلها عنه) انظر: محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى، ص242 وما بعدها (قارن: محمد الصغير، أصول البيان العربي، ص98-99)؛ مصطفى الصاوي الجويني، البلاغة العربية، ص128، والبيان فن الصورة، ص78؛ إبراهيم التاب، التشبيه، ص104-105.

(51) ذهب محمد الصغير إلى أن الرماني لم يورد أمثلة قرآنية على الوجه الرابع (انظر: أصول البيان العربي، ص98)، ولكن عبارة الرماني هذه تدل بوضوح على أن هذا المثال على الأول هو من أمثلة الوجه الرابع عنده.

(52) انظر: الصناعتين، ص240-242؛ وانظر أيضا: الزركشي، البرهان، ج3، ص421-422؛ السيوطي، الإتقان، ج2 ص105-106. وقد أخذ ابن ابي الإصبع (تحرير التحبير، ص161؛ بديع القرآن، ص59) أحد هذه التشبيهات، ولكنه أورده مثالاً على "إخراج الكلام بالتشبيه مخرج الإنكار"، وهذا وجه لم يرد عند الرماني، مما يؤكد ما ذكرناه أعلاه.

(53) يقول إبراهيم التاب في تفسير كلام الرماني: "فالمشبه به وهو الفخار أقوى في الصفة من الصلصال، لأن الأول قد جف في النار، أما الثاني فقد جف في الهواء" (التشبيه، ص91).

(54) قارن: النكت، ص75- 78؛ سر الفصاحة، ص246-247.

(55) قارن: النكت، ص77-78؛ سر الفصاحة، ص247.

(56) على أن ابن سنان يرى أن بعض التشبيهات تجمع بين غرضي الوضوح والمبالغة، انظر: سر الفصاحة، ص 247، ص255، ولكنه لا يرى أن بين الغرضين تلازماً، فقد يوجد أي منهما في بعض التشبيهات مستقلاً عن الآخر (انظر: ص247، 248) .

(57) قارن: النكت، ص77؛ الصناعتين، ص241.

(58) قارن: النكت، ص75- 78؛ الصناعتين، ص240-242. يمكن تقويم ما في عبارات "الصناعتين" من التواء هنا بالرجوع إلى الرماني؛ مثلاً في"الصناعتين": "يحسبها الرأي" (ص240)، و"الانتفاع بالصورة" (ص241)، و"حمل النفس على التغرير بالعمل"(ص242)، وصوابها من"النكت": "يحسبها الرائي" (ص75)، و"الارتفاع في الصورة" (ص76)، و"حمل النفس على الغرور بالعمل" (ص78) .

(59) قارن: النكت، ص75؛ مواد البيان، ص187.

(60) قارن: النكت، ص76، ص77-78؛ مواد البيان، ص185-186، ص193، 189 (على التوالي).

(61) قارن: النكت، ص75؛ مواد البيان، ص185، 187.

(62) قارن: النكت، ص75؛ العمدة، ج1، ص299.

(63) قارن: النكت، ص75؛ العمدة، ج1، ص287.

(64) انظر (مثلا): ج1ص90، ج2ص569، ج4، ص1711.

(65) قارن: النكت، ص77، 78؛ شرح الحماسة، ج2، ص744، ص956.

(66) انظر أيضاً ما يقوله أبو زهرة (المعجزة الكبرى، ص241) في الرد على الرماني.

(67) قارن: Herbert Read, English Prose Style, 25.

(68) انظر: بديع القرآن، ص58-59.

(69) يرى أبو زهرة أن تشبيهات القرآن "فيها الحقيقة وفيها البلاغة" (المعجزة الكبرى، ص243)، ولكن مجرد كونه يعد من باب الحقيقة ما عده الرماني من تشبيه البلاغة (تشبيه أعمال الكفار بالسراب) يدل على أن ما يعنيه بمصطلحي الحقيقة والبلاغة مختلف كلياً عما قصده الرماني.

(70) الفيروزابادي، القاموس المحيط، مادة "ش ب هـ".

(71) انظر (مثلا): عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، ص248-250؛ وليد قصاب، التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة، ص134؛ إبراهيم التاب، التشبيه، ص88 وما بعدها.

(72) انظر (مثلا): ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص159-161، وبديع القرآن، ص58-59؛ الزركشي، البرهان، ج3، ص421 وما بعدها؛ السيوطي، الإتقان، ج2، ص105 - 106 .

(73) انظر: الصناعتين، ص243، 245 وما بعدها؛ قارن: عيار الشعر، ص17 وما بعدها.

المصادر والمراجع

ابن الأثير، ضياء الدين، كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب، تحقيق نوري القيسي وآخرين، 1982، منشورات جامعة الموصل.

________، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، 1959، ط1، مطبعة نهضة مصر، القاهرة.

ابن أبي الإصبع المصري، زكي الدين، بديع القرآن، تحقيق حفني شرف، دون تاريخ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

________، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق حفني شرف، 1963، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.

الباقلاني، القاضي أبو بكر، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دون تاريخ، ط3، دار المعارف، القاهرة.

البغدادي، ابن ناقيا، الجمان في تشبيهات القرآن، تحقيق مصطفى الصاوي الجويني، د.ت، منشأة المعارف، الاسكندرية.

التفتازاني، سعد الدين، مختصر المعاني، شروح التلخيص، د.ت، دار السرور، بيروت.

التاب، ابراهيم، 1999، التشبيه؛ دراسة في تطور المصطلح، دار الطباعة المحمدية، القاهرة.

الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق هيلموت ريتر، 1954، مطبعة وزارة المعارف، استانبول.

الجرجاني، القاضي أبو الحسن، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، د.ت.، ط3، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

الجويني، مصطفى الصاوي، 1985، البلاغة العربية، تأصيل وتجديد، منشأة المعارف، الاسكندرية.

________، 1993، البيان فن الصورة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.

حسين، عبد القادر، د.ت. أثر النحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة.

حمدان، محمود، 1992، أدوات التشبيه؛ دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم، ط1، مطبعة الأمانة، القاهرة.

الخفاجي، ابن سنان، سر الفصاحة، 1982، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن خلف الكاتب، علي، مواد البيان، تحقيق حسين عبد اللطيف، 1982، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس.

الرماني، أبو الحسن، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دون تاريخ، دار المعارف، القاهرة.

الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، 1957-1958، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

الزمخشري، جار الله، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، 1982، دار المعرفة، بيروت.

أبو زهرة، محمد، د.ت، المعجزة الكبرى، القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة .

الساعي، أحمد بسام، 1984، الصورة بين البلاغة والنقد، ط1، المنارة للطباعة للنشر والتوزيع ودار القلم، دمشق.

السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق عصام فارس الحرستاني ومحمد أبو صعيليك، 1998، دار الجيل، بيروت.

الصغير، محمد حسين، 1999، أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، ط1، دار المؤرخ العربي، بيروت.

ضيف، شوقي، 1965، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة .

طبانة، بدوي، 1962، البيان العربي: دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، 1986، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

__________، كتاب الفروق، تحقيق أحمد سليم الحمصي، 1994، جروس برس، طرابلس، لبنان.

عصفور، جابر، 1974، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار الثقافة، القاهرة.

العلوي، ابن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، 1956، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

عودة، خليل، 1996، المستوى الدلالي للأداة في التشبيه، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، المجلد الثالث، العدد العاشر.

الفيروزآبادي، مجد الدين، القاموس المحيط، 1986، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت.

فيود، بسيوني، 1989، دراسات بلاغية، ط1، مطبعة السعادة، القاهرة.

قدامة بن جعفر، أبو الفرج، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، 1963، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد.

القزويني، الخطيب، تلخيص المفتاح، دون تاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت.

قصاب، وليد، 1985، التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري، دار الثقافة، الدوحة.

القيرواني، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، 1981، دار الجيل، بيروت.

ابن قيم الجوزية، شمس الدين، كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، دون تاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت.

لاشين، عبد الفتاح، 1984، البيان في ضوء أساليب القرآن، ط1، دار المعارف، القاهرة.

المرزوقي، أبو علي، شرح ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، 1991، ط1، دار الجيل، بيروت.

المرغيناني، أبو الحسن، المحاسن في النظم والنثر، حققه خيرت فان خلدر ، ونشره مع مقدمة ابن أفلح البغدادي في كتاب: Two Arabic Treatises on Stylistics, 1987, Niederlands Historisch -Archaeologisch Institut, Istanbul.

المطعني، عبد العظيم، 1980، التشبيه البليغ: هل يرقى إلى درجة المجاز؟ دار الأنصار، القاهرة.

__________، 1993، المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع، ط2، مكتبة وهبة، القاهرة.

مطلوب أحمد، 1973، مناهج بلاغية، ط1، وكالة المطبوعات، الكويت.

ناصف، مصطفى، 1983، الصورة الأدبية، ط3، دار الأندلس، بيروت.

Abrams, M. H. 1971. *A Glossary of Literary Terms,* 3rd Edition, Holt, Rinehart and Winston, New York.

Brooks, Cleanth and Robert Penn Warren. 1976. *Understanding Poetry*, 4th Edition, Holt, Rinehart and Winston, New York.

Flanagan, J. 1995. Al-Rummani, *The Encyclopaedia of Islam*, New Edition, Edited by C. E. Bosworth *et al.,* VIII, E.J. Brill, Leiden.

Lanham, Richard A. 1969. *A Handlist of Rhetorical Terms*, University of California Press, Berkeley.

Read, Herbert. 1988. *English Prose Style,* Kalyani Publishers, New Delhi.

Al-Rummānī's *Tashbīh* and its Influence upon Pre-‘Abd al-Qāhir Rhetoric

Abdul-Karim Al-Hyari*

ABSTRACT

Through the analysis of his conception of *tashbīh* (simile) and its different aspects, the present article argues that the interchangeability of two things explicitly likened to each other is the notion which underlies al-Rummānī's chapter on *tashbīh*. It also concludes that - apart from his insistence that the word which indicates similarity be explicitly stated - this notion and such ideas derived from it are, although they appear otherwise, in line with the traditional literature on the figure. His ideas, which have failed to attract much attention in modern research, dominated (albeit not always accepted or properly understood) the rhetorical scene almost a century before being eclipsed by ‘Abd al-Qāhir's. The most prominent rhetoricians of that time were influenced by al-Rummānī, among them ‘Ali Ibn Khalaf who was his most adherent follower.

---

* Department of Arabic Language, Faculty of Arts, University of Jordan. Received on 17/5/2004 and Accepted for Publication on 28/3/2005.